

من منشورات مجلة الاغتراب الادبي

فصول مختارة من رواية ( حبل السُّرَّة ) بالعربية ، وترجمتها  
الى الانكليزية :

# حبل السُّرَّة

تأليف

سميرة المانع

الطبعة الاولى ، لندن ، تموز/ يوليو 1990

الرقم العالمي للكتاب: ISBN 0 9516275 0 3

حقوق الطبع والاقتباس محفوظة للمؤلفة

توزيع : مجلة ( الاغتراب الادبي).

تطلب : على عنوانها .

# كلُّ هذا الجاز

ما انْ شعَرَ مريضِي ، الذي كنتُ ارافقه كمتّرحمٍ في لندن ، بالتحسن قليلا ، حتى اقترح ان اذهبَ معه لزيارة احد معارفه من ابناءِ قومه ، مضيفاً في نهاية طلبه:

- دعنا نزوره ، إنه مشكوكٌ به .

- ما الغاية من الزيارة؟

- نرى كيف يعيش ، من يأتي لزيارته ، ما هي أراؤه الاخيرة . نزوره بحجة اننا مشتاقون له ، هو احدُ جيراننا في السابق ، زميلي في المدرسة الثانوية ، استطيعُ أن اقول كنا شبه اصدقاء .

اتصلنا به تليفونيا، ففوجيء مغتبطاً من وجود مريضِي بلندن ، حددَ موعداً

لللقاء كي نزوره في بيته معا، بعد فراق سنوات ، مرحباً بنا.

كان مع زوجته واطفاله الثلاثة ، استقبلنا بحرارة وفتحت لنا اكثر غرف الشقة اناقة ودعينا للجلوس . سألوا عنه وعن الاهل بالوطن ، محيطين بنا من كل جانب مرددين

عبارات الحفاوة والاكرام . فرفر اطفاله من حولنا، بعد ان رأوا فينا ملامح وسحنأ تشبه وجوههم والوان اهلهم وابناء وطنهم ، فأحسوا بالالفة والانشراح . اقتربتُ

الصغيرة من ساقِي صاحبي المريض ، تُريد أن تجلس محاذية

له ، محاولة أن تنالَ ملاطفة ما . فلم يقصرُ ، تناولها من مكانها واضعا ايها على المقعد قربه وساقاها بالحذاء عاجزتان عن التماس بالارض . بقي الطفلان الآخران

ينتظران دورهما ، كي يكسبا ، ايضاً، ودّ ورضى ضيوف الدار .

تأخرتُ المناسبة كون المريض اهتم بالاستفسار عن امور اخرى متعلقة بوالدهما

وكيف يعيش بلندن ، وهل طاب له المقام بها ، وما هي آخر اخباره.. استغرقتُ

عملية الاستفسار بعض الوقت ، ابدى فيها المريض براعة تفوق براعة تحقيق طبيبه معه

في المعالجة النفسية والبدنية ، مغلفا هذا كله بايتسامه المحب المهتم ولا شيء سوى ذلك .

انشغل الجميع بالانصات والتعليق والحركة ، ولم تتوان كثيرا رائحة طعام حتى وصلتنا من المطبخ ، تأتينا على اتم سرعة ، تكهنتُ فيها رائحة الاطيب من البهارات الشرقية اثناء القلي والشواء. اهتمكتُ الزوجة باعدادها لنا ، خصيصا، لئلا نكون قد اشتقنا لبعض الاكلات البلدية ، والتي تبتهج بعض النسوة ، عندنا، في تقديمها اثناء الضيافة والزيارات .

هل من شراب قبل الكل ؟ دارتُ الاقداح بيد كبير الاطفال وعمره لا يتعدى التسع سنوات ، وسرعان ما وقف قرب اخيه الاوسط متهيئين لالقاء نشيد يجيدان الترنم به . فظنَ والدهما للامر . صفقَ بيديه متساحماً ، أي هلما وقدا ما لديكما . هكذا اشترأبت حنجرتا الطفلين بنشيد باللغة الانكليزية متمرنين عليه على ما يبدو ، اثناء دراستهما، في احدى مدارس بريطانيا، حتى صار جزءاً من ثقافة اللسان :

باء ، باء ، يا خروف اسود

هل لديك صوف ؟

نعم سيدي ، نعم سيدي

لديّ ثلاث صررٍ من الصوف

واحدة من اجل سيدي والثانية لسيدتي

والثالثة للصبي الصغير الذي يعيشُ في منعطف الدرب

اعمارهم ما بين التاسعة ودون الثالثة بقليل ، ولدان وبنت واحدة . صفقنا للولدين تشجيعاً ، فجلسا راضيعين كحيوانين اليفين . سادَ صمت قصير ، ربما اهاب بالطفلة الجالسة المصغية لهما ، باهتمام تام ، كي تدلو بدلوها ، ايضا ، غتصت رقبتها تجاه والدها ، مشيرة له انها ، هي ايضا ، تريد ان تفعل شيئاً

مفيدا . كان لها ما ارادتُ، وقفتُ على ساقها نازلة من حضنه ، وكانت قد انتقلت  
اليه منذ هنيهات ، لتقول اغنية عربية للاطفال ، سمعتها من والدتها ، حتماً ، كمصدر  
مستقل ، فكانت تقول :

ويصُ ويصُ يا ماما

امنا الحباية

تغزل بمغيزها توفي دين البابا

تحمسنا لها تحمسا يليق بالمناسبة ، مرتين على ظهرها ، قبل ان تخفي  
وجهها ، كلياً، في صدر الاب من شدة التواضع والحياء .تساءلنا هل تعرف المزيد من  
هذه الالحن ؟! مكثرين من الثناء على لحنها الرائع والوصوصة الواثقة من نفسها.  
فهمنا ،بعدئذ ، انها منغمسة الى اذنيها بالاصغاء . تتسقط من اخويها ما يتفوهان به ،  
وتنشد الى الحان شاشة التلفزيون بالاضافة الى حكايا امها واغانيها باللغة العربية قبل  
ان تنام .

\*\*\*\*\*

انتهزتُ فرصةُ خلو المكان من الوالدين ، ونحن على منضدة الطعام ، بعد انتهاء الأكل  
، لأهمس في اذن مرافقي المريض :

- يا صاحبي ، اترك تحرياتك وتحقيقاتك الآن ، انظر لاطفاله ولزوجته ولترحيبهم بنا  
، حرام عليك يا اخي ان تنقل عنهم شيئاً ، حرام علينا بعد أن اكلنا معهم الخبز  
والمالح أن نفشي اسرارهم ونتجسس عليهم .

- خففْ عنك ، لا تقلقْ ، كل الذي اريده هو ان اعرف شيئاً عن حياته بلندن  
فاكتب بذلك تقريراً للجماعة ، هم مسؤولون بعدئذ .

- ولكن افرض انهم غير معجبين بصفاته ، او هو مخالف لارائهم ، الا يناله الضرر

؟

- أي ضرر؟ ليس هناك ضرر ، هو في لندن ، بعيد عنهم ، سيوضع التقرير في اضبارته الشخصية ، وهذا كل ما سيحصل في هذه الايام .
- واذا ما ذهبَ للوطن ؟
- الله كريم هناك ، بل اقول الله معه ، ليته ينقذه .
- قفلنا راجعين بعد انتهاء الزيارة ، عرّجنا على شقة المريض التي كان يمضي فيها آخر ايامه للاستشفاء ، بعد أن خرج من المستشفى .
- كانت اياماً قليلة ، اجرى خلالها فحوصات عامة ، متأكداً من تخلصه من الاورام ، التي أُزيلت عنه مؤخراً ، مطمئناً الى ان كل شيء على ما يرام . سافر الى بلده اخيراً ، املاً للعودة سواء الى لندن او الى المستشفى ذاتها .
- مرت شهور لم اسمع منه شيئاً ، حتى جاءني ، قبل يومين ، نبأ وفاته ونقل جثمانه الى مثواه الاخير .

\*\*\*\*\*

- بمجرد ان تبادلنا التحية في القطار التحت ارضي ، انبرى دهشة :
- لقد كبرت ، كبرت كثيراً ، تبدين كبيرة جداً ، اكثر من سنك مديحة !
  - ( لا ، لا ، يا حمار ، هذا غير صحيح ، كلام كهذا لا يقال وجها لوجه ) اشاخني زماني ( واذا اردت الحقيقة ، انت لست افضل حالا مني ، انظر لشيبك وصلعتك ، ماذا تريد اكثر ، انت عجوز مكربس ) .
  - ما الاخبار؟ اقصد الاضطرابات في المنطقة ، الحرب وما شاكل ؟
  - علمي علمك ، ما نقرأه ونسمعه في الصحف والمذيع .
  - لا ، لا ، لا اسمي هذه اخباراً ، معظمها مُحرفة ، يقصد منها التشويش على الاخبار الحقيقية ، لا اسمي ما اسمعه وأقرأه في الصحف والاذاعات اخباراً ، ما رأيك انت ؟

- ( يا فطير، تريد اعطيك رايبى بصراحة ، اكشف عما في صدري ،اخبرك عن دواعي الاضطرابات والحرب ) لا اعرف غير ذلك ،هذه مصادر معلوماتي .
- شيء غير معقول ، انت لاتستطيعين الحصول على خبر مستعجل من اذاعة عربية ما دامت نشرتها تبدأ بسرد وقائع ما حصل لسمو الامير فلان وللملك علان او الرئيس تكلان !
- (اللعين يريد يستدرجني للفخ ) كل واحد يقول شيئاً .
- ما هذا التهرب، المسألة ليست حزورات ، ماذا يقول اهلك في رسائلهم من الوطن ؟ هل ضربوا المدينة بالمدافع مثلاً ؟ هل تضررت ، وما هو موقف الرأي العام ؟
- ( ما هذه المصيبة ، لا يُريد الفكك ) يقول البعض وقعت اضرار .
- اهلك ، اهلك ، ماذا يقولون؟ هم يسكنون هناك يا مديحة ؟
- نعم .
- ماذا يذكرون في رسائلهم ؟ هل هم بخير ، أهنك مواد غذائية في السوق ، هل اعتقلت الحكومة احداً تعرفينه .
- ( هذا الاحاح لا يخلو من نية مبيتة ) رسائلهم مختصرة.
- طبعاً ، هم خائفون ، المساكين ، هذا شيء واضح، اهلك معذورون ، هناك رقابة على الرسائل ، اما انتِ فالمسألة مختلفة ، لا احد يفهم لغتنا في القطار ، انت بعيدة ، نحن بلندن .
- افهم ، افهم ( الله يسخّم وجهك، تريد مني الكلام وحوالي عشرات الوجوه ، لنفرض ان احداً منهم يفهم اللغة العربية ! )
- كيف حال الاولاد ، هم معك هنا بالطبع ، لديك ولدان أليس كذلك ؟
- نعم هما بخير والحمد لله ( يعرف تفاصيل عنا اكثر من اللازم ).
- حسنا فعلتِ حين جئتِ بهما الى لندن بعد وفاة المرحوم ، هل اتما الدراسة تُرى ؟
- الكبير تخرج طبيباً ، يعمل في المستشفى ، والآخر لا زال طالباً.

- هما معك في الاقل ،هل تذهبون للوطن؟
- (الداهية الماكر) احياناً.
- وتخرجون منه بجرية ؟
- لدينا اقامة ببريطانيا ( متى ينتهي تحقيقه معي تُرى؟ )
- لحسن الحظ، والا لما تخلصتم منهم . لا احد يتخلص هناك . مشاكل دائمة ، تعقيدات مستمرة ، المحظوظ من ابتعد عنهم.
- ايقاع الأذى بالآخرين موجودٌ منذ الازل .
- لا ، ليس كما يحدث حالياً ، وبهذه الشدة والاتقان . كانت الحكومات لا تطال الاخرين الا بصعوبة ، اما الآن فالناس تخاف الحكومات ،لان الاخيرة تملك وسائل علمية للتجسس عليهم ، تستعمل الآت دقيقة فتعرفهم واحداً واحداً بالكمبيوتر ، اشياء دقيقة توضع حتى في ساعة اليد ، وما دامت المسألة دفع نقود فالمرتزقة كثيرون . أتذكرون كيف كنا بالسلك الدبلوماسي يوماً ؟ كان زوجك المرحوم مديناً طيلة حياته ، وانا زميله في الوظيفة ، لاختلفُ عنه كثيراً ، لم نعبأ بالنقود ، هناك امور اخرى اهمُّ منها تجعلنا مستأنسين .
- أتذكر المنضدة التي اشتريناها بالقاهرة ، بعد ان وقعنا بجبها ؟ تصورناها في البداية ، تحفة فنية اثرية نادرة من عصر المماليك (من الافضل ان أُغَيِّر الموضوع) وجدناها ،بعد فترة ،مزيفة.
- آه، أحسنتِ . هذه واحدة من ذكرياتنا في الماضي ، كنتِ يائسة من شرائها خوفاً من غلاء الثمن بعد ان رأيناها في بيت احد الموسرين، أتذكرون ؟ لكنني بعد اسبوع ،عشرتُ على العشرات منها في سوق خان الخليلي وسعرها زهيد . لا زلتُ اذكر منظرِك حينما اخذتُكم لرؤيتها مكدسة عند البائع . أتعرفين الموظف الذي جاء معنا ،آنذاك ، واسمه "حسن بيضي" صار مليونيراً الآن .
- ما عمله؟

- آ، هذا صحيح ، ما عمله؟ انه سمسار لشركات النفط او الاسلحة ، لا ادري  
والله ، لا يهم ، الامر سيان بالنسبة اليه . المهم العمولة . لكنه لا زال مصرا على  
تشنيف آذان مستمعيه بنعيم الحياة تحت النظام الاشتراكي ، ونحن نعرف انه  
ذهب الى احدى الدول الاشتراكية مرة ، وعاد مهرولا ، لم يطق المكوث فيها  
اكثر من شهر . اسرع عائدا ، خوفا من ان يفقد رخصة اقامته الدائمة ببريطانيا ،  
فيحرم من التمتع بالملذات واسواق الاستهلاك، انواع التملك في الاسهم  
والارصدة والبنائيات التي يوفرها له ، بالطبع ، النظام الراسمالي . يهيا لي انه يتغنى  
بالاشتراكية كي يعتذر عن طبيعته النهمة الجشعة، كأنما يريد ان يطهر نفسه،  
محاو لا ان يظهر بمظهر النسك والزهد. وامثاله كثيرون . نحن جياع ، محرومون  
منذ قرون ، تفتح لنا ، حنفية نقود بوجود النفط ، فجأة، مع المغريات وسوء  
التوجيه ، ماذا تتوقعين ، يا اختي ؟!

- ( صرت اخته ايضا) الله يُعين الجميع.

وفجأةً اخرج ، وهو مسرور، رزمة ملفوفة من حقيبتة التي يحملها، فتح الرزمة  
منبسطة :

- اشتريت هديةً لبعض الاصدقاء الانكليز ، شيئاً مضحكاً ، هه !

- ما هو ؟

- ابريق شاي على هيئة وجه رئيسة وزراءهم مسز ثاتشر . هه ، هه.

كان الابريق من الخزف الصيني وعليه رسمت تقاطيع وجه مسز ثاتشر، مصممة  
بالالوان ، بشكل حاذق ودقيق . احمر الشفاه قان كعادتها ، الحواجب والعيون  
مخططة .

- الديمقراطية ، دعنا مما قيل وما سوف يقولون ، هذه مسز ثاتشر تُباع في مخازن

لندن على شكل ابريق شاي ، لا تكون السياسة مجرد علاقة عبد

وسيد ، حاكم ومحكوم ، نشهق لثلا نغلط بلقب احد الحاكمين



في بلداننا ، وصورته معلقة على رؤوسنا صاغرين . تصبح السياسة كارثة ما لم تتخللها دعابة كهذا الابريق.

فُتحت ابواب القطار في تلك اللحظة ،تساءل بلهفة :

- أنغادرين!؟!

أكدت له نيتها ، بسرعة قيامها من مقعدها، سيرها الخاطف الى الباب، قائلة مع السلامة . نزعت نفسها من بين الركاب الواقفين ،هابطة ارضية المحطة اخيراً .تنفست الصعداء ،لم تلتفت الى زحف القطار السائر وراءها الا بعد سيره مسافة قصيرة، رآته جالساً محنياً عنقه قرب زجاج النافذة متهيئاً للتلويح ،مودعا لها. لم يعثر على صدى حقيقي لديها، كانت تفكر ( ما يدريني ،ربما يكون جاسوساً ،ربما اصبح جاسوساً الآن .لا أريد تقوية علاقتنا معه) .

بعد ان هدأت ضجة سير القطار، مبتعداً ، عاد المكان الى صمته ورتابته . شردت مخيلتها قليلاً ثم توقفت واستقرت . تمهلت حيث ياقة قميصه المتهرئة الرثة ، التي كانت تعلقو وتهبط مع تفاعه آدم في عنقه ، اثناء اصراره على الحديث معها . يبست مديحة متنبهة لها ،ثم شعرت بفرح طاغ وانفراج في صدرها غريب . كانت الياقة الممزقة تنطق ، تقول لها إنه واحد من الابرياء.وجدها في القطار، صدفةً، فاراد ان يشكو لها همه، وهي تدري، انه همّ بالغ الوحدة كثير . هو لا زال صديقاً زميلاً لزوجها يوماً ، طيباً ، ثرثاراً بعض الشيء ، لكنه مخلص في الاهتمام بها وباولادها وثمة دفء قديم .

( ليس كما ظننتُ بالتأكيد) إنه رجل محترم وصادق ، كانت الياقة تشهد على ذلك مع جملة ما تنبه اليه من اشياء اخرى .

عصرت حقيبتها بقسوة ، ولم تعبأ بعبور الشارع العام اثناء ما كانت سيارتان قادمتان ترعدان في كلا الجانبين ، كأنهما تهمان بالوصول اليها . افلتت منهما بصمتٍ وهدوءٍ مثير .

## النظرُ للامور

تراه تحتَ شجرة الدردار الضخمة ، بمحاذاة النهر بالمقعد  
الخشبي . يمدُّ ساقيه مسترخياً ، يتحدثُ مع نفسه عالياً ،  
يخرج اصوات من يتقياً او يبصق على العالم اجمع ، يسخر  
مهدداً الآخرين . تسمعه ، احياناً اخرى ، منتحياً ، شاكياً ،  
طالباً العون . تتظاهر وكأنَّ الامر لا يعينها ،  
غافلة ، سائرة للامام . ابعد ما تكون رغبةً في إثارتِه او  
استفزازه . دعه ، فليكنْ . البشر انواع ، مصلحته  
مضمونة، وهي على الحياد . لن يباغتها ، كما حدث يوماً ،  
عندما اخرج قنينة من تحت ابطه ، قلبها معجباً ، حضنها  
بكفيه مرتباً ، قبل ان تسرع يده بها الى فمه الملهوف .  
الحركة الاخيرة حركة سريعة متأزمة لا يجاريه فيها الا عجلة  
زقِّ العصافير في قلب الشجرة باحد العشوش .

شيء لا بدّ منه ، يخصه وحده ، هي امرأة عملية لا يهملها  
امرء ، محدودة الهموم . سائرة في طريق الشاطيء المفعم  
بالهدوء ، حين يكون عشقها لمنظر صباحات النهر له جذب  
رقيق ، ووعيون المارة ترمقه شزرا .  
المشهد يتكرر ، رأس مديحة يتذكر ، كلما اقتربت من البقعة ،  
مثل رقاص ساعة مؤقتة بانتظام غريزي . لا تنسى اللدغة ،  
عندما جربت الجلوس جنبه ، يوماً ، قبل ان تخرج القنينة ، من  
تحت خاصرته كسلاح ناري . كانت ساهيه تماماً ، غارقة في  
نفض غبار الاصابات ، الكدمات ، ماضية في تضميد جروح  
الروح ، الوطن الذي اصبح البعيد ، البعيد ، لاجئة للنهر ، آملة  
في بعض تفريج . فطنت لقلقه المطلق ، للوحدة ، للطريق  
الموحش ، والشر الآتي من مكان لا تدريه . اضطربت ،  
ذعرت ، ابتعدت ، تلملت ، متى تقوم ؟! ابتسم في وجهها  
منتصراً ، اجل ، انت اليوم ضيفتي ، والقنينة القدح المثالي .  
اصر ان تكرر جرعة قبله ، انها لك ، لا شكراً ، لا أريد .  
استنكر ردها ، كيف ؟! لماذا ؟! اشمئز منها ، ما الذي

تنتظرين؟ لا ، لا شكرا لا أريد، والقنينة تنتظر، على احر من  
الجمر ، تؤنب، تعاتب تهر بها الفجائي.

وصلت الى بقعته ،اليوم ، كيف ستتجنبه ؟ بالمداورة ، بغض  
الطرف ام بالحلم والصبر الجميل؟ كل هذا وهي تعرف  
الحق الذي يديه السكارى عند خدش

شعورهم .توقعتُ هذا كله قبل ان تلمح عينها المقعد ، لا  
اثر للمخمور فيه ، انه فارغ ، هل الامر صحيح؟! المكان  
يبتسم ابتسامة عريضة، شبه مذنبه ،يضج بالانس.

أجلُ هذا صحيح، انا أغري بالجلوس ،أهيج ، انا وسيم .  
جميع ما حولها متناغم ، يلهو، يقهقه اماناً واطمئنانا. السفن  
الشراعية الصغيرة الملونة، البط الصافن والمتزحلق على صدر  
الماء الواسع . لا ضحك ، لا بكاءً مريراً. لا بصاقَ على  
العالم ، لاحقدَ او تمزقَ بطيء .

اسرعتُ ، مغتبطة، بالجلوس على ذلك المقعد الحر ،  
منسجمة مع نفسها والمحيط :

- صباح الخير.

- صباح النور

ردتُ ملتفةً على مصدر الصوت الرجالي المقرب منها ، بعد دقائق من جلوسها . دنا منها ، حنطي البشرة، متوسط العمر . انه ، على ماتعتقد ، واحد من عشاق جمال المنطقة الطبيعي . يعرفون نقطة ضعف بعضهم بعضا نتيجة هذا الحب . اراح جسده على المقعد العام قربها ، لجأ اليه دون مقدمات ، بالسماح له في الجلوس ، عذره الشرعي جمال النهر امامه . امور تخوله الصحبة والحديث مع بني البشر:

- اراكِ تسرعين إلى هذا المكان دائما ، المحكِ وانتِ تسيرين .

- احيانا انا في عجلة من امري .

- تذهبين للعمل ؟

- لا ، اذهبُ للسوق .

- العملُ في هذه الايام قليل .

- هل تعمل ؟

- لا ، انا في البيت .

بسط امامها كفاً غريبة ، مفقوداً ابهامها ، هناك خيط  
لحمي في منتصفها ، لونه غامق ، وكأنه من يد اخرى .  
شرح لها :

- حادثة في الشغل ، وقعت الماكنة على يدي وبترت  
الإبهام ، كادت تبتري ذراعي كلها لولا السرعة في الانقاذ  
ومهارة اطباء الممازين . لقد خيط هذا الجزء من الكف  
كما ترين . لا يستطيع ان امسك بها كوبا . انها يابسة ،  
لا تقبض على شيء ، لكنها ، بالتأكيد ، افضل من عدم  
وجودها ، منظرها لا بأس به ، لنتصور الاسوأ .  
ظلّ يقلب كفه الميتة بيده المتحركة الأخرى . يهزها  
كمن يريد ان يُفيقها من سبات عميق :

- هذا صحيح .
- من أي بلد انتِ؟
- احزرُ؟
- لا لستِ هندية ، لا تشبهين الهنود .
- جرب مرةً اخرى .
- من اليونان

- مكان قريب
- اسبانية؟
- ابعء بقليل
- من اين؟!
- من الشرق الاوسط
- اوه ، مكانٌ ثروته عظيمة وناسُه مهمومون ، لكنّ فيه نقوداً ، نقوداً كثيرة .
- ظلّ يسكبُ الدراهم بيده السليمة متخيلاً. تفلت
- النقود الوهمية من الابهام والسبابة .
- يُهياً لي انك اجنبي ايضاً.
- أنا ايطالي ، هاجرنا منذ الحرب العالمية الثانية . خسرنا الحرب ، كما تعلمين ، توزعنا في انحاء المعمورة ، أتعلمين ان القرن العشرين هو قرن التهجير ؟ منذ الحرب العالمية الاولى والثانية والتهجير جماعي .
- \_ ربما لوجود المواصلات السريعة بالاضافة الى الاسباب الاخرى .
- \_ اعتقد ذلك ، أنتِ متروجة؟

\_ ارملة.

\_ ألدك اولاد؟

\_ ولدان.

- لا اطفال عندي . توفي اول طفل لنا اثناء الولادة . لم

تستطع زوجتي الحمل بعد ذلك . نحن الان في منتصف

العمر . بقيت زوجتي على الاقل معي .

- هل تعمل؟

- تعمل في مصنع البيتزة القريب . لم تبدل عملها منذ

عشرين سنة . اصحاب المعمل ايطاليون . يصنعون افخر

انواع البيتزة بلندن ، أتجين البيتزة؟

لم ينتظر جوابها ، استمر بالحديث ضاحكا:

\_ ايطاليون دون بيتزة ، مستحيل ، لا تستطيع المعدة

العيش دونها . المعدة لا تفارق وطنها الاصلي . عوضني

المعمل عن فقدان يدي ، وحصلت على تقاعد . نحن

مرتاحون بشكل ما ، تطبّعنا على الحياة بهذا الشكل ،

وعلى ما هو موجود ، والا هل نظل نبكي؟!!



اثناء انهماكهما في الحوار الصغير افزهما المخمور . اطلَّ  
بوجهه الضائع من لامكان . جلس معهما على المقعد العام  
الذي يسع اربعة اشخاص ، غاضباً . هَزَهَزَ قدميه وذراعيه  
حتى استقر اخيراً . فتح ياقة قميصه ، متضايقاً ، وكأن القيظ  
جاء فجأةً ، فصمتا . رمى عليها نظرة سريعة مترعجة  
فتململت . غمز الايطالي لها ، جانباً ، ما معناه :  
" لا تضطربي ، لن يفعل شيئاً ، إنه مسكين " . بقيت في  
مكانها متشجعةً ، مكافحةً قلقها ، مفتشةً عن امن المكان  
الذي طار فجأةً . شطبَ المخمورُ الطمأنينةَ كلها بجرة قنينة  
مخبئة في صدره . قنينته المعهودة ذات اللون الصديء .  
مسحها بعناية ، ربتَ عليها بعناد من يُريد ان يقهرَ اعداء .  
قدمَ الشرابَ لهما اخيراً : " هيا ، اشربا ، نخب الصداقة " ترددَ  
الايطالي محجماً . حزرَ الثملُ انها ستحدو حدوه . اردفَ  
ساخراً : " نخب الحبيبين " ثم اكملَ : " نخب اول قبلة " ظلَّ  
يكررُ القولَ متهكماً ، رافعاً القنينةَ باعتداءٍ كريبه . وقفَ  
الايطالي لتهدئته ، ماسحاً كتفه بيده السليمة : " لا بأس ، لا

بأس ، سنشربُ معكُ يوماً ، في يومٍ آخر " بينما كان يشير لها اشارة خفيفة ، سريعة ، تعني :  
" قومي ان رغبتِ " ويده تربّت المخمور . اسرعت في القيام دون ان تقول وداعا .

قال الايطالي ، اثناء سيرهما على ضفة النهر ، معاً :

— يشربُ كي ينسى ، لا بدّ انه مهموم .

ردتُ وقد ظهرَ ضيقها :

— وهل هو وحده المهموم !؟

— شخص ضعيف . بعض الناس لا يستطيعون مواجهة المهموم .

— ولماذا يجلس في هذا المكان دائماً !؟

- بسبب النهر . للنهر تأثير عظيم على البعض . يتصورون

انه سيعيد اليهم توازنهم ، وانتِ الا تعتقدين ان للنهر

تأثيراً عليكِ؟

— بالطبع ، انسى كل شيء حينما اراه . كأن شيئاً ثقيلاً

يُزاح عن صدري . لا اعرف السبب .

— تفسيري ان صفاءه ولونه يُزيحان الكراهية والحقد عن  
بعض القلوب . عندما أمعن النظر اليه انسى ايام الحرب في  
ايطاليا ، القتلى ، الدمار ، انسى خصومي والدّ اعدائي ،  
يصبح الجميع ضعفاء مساكين . نحن البشر كلنا مساكين .  
اتصور ان تأثيره يشبه تأثير ليلة نوم هادئة مريحة دون  
كوابيس . عندما استيقظ ، صباحا ، اجدني صافيا نقيا ،  
اقول لزوجتي : " الآن ، اناسعيد ، نفضت هماً عني ، لم اعد  
اشعر بالكره . أحبُّ الناس جميعاً " . افكر احيانا ، ان  
الكراهية والحقد ليسا سوى حالة ارهاق وتعب  
جسديين . تُرى أسباب التعب يكره القادة والمسؤولون الناس  
والشعوب ؟ ألاهم مرهقون يكرهون الآخريين فيشرعون  
القوانين الظالمة معقدين الامور ؟ أتكون الراحة ضرورية  
لهم ، الاجازة مهمة كي يستعيدوا شعور الرحمة والحب ؟  
أتساءل ، احيانا ، لهذا السبب ، ايضاً ، يؤجج كبار السياسة  
والزعماء في العالم المنازعات والحروب؟

\*\*\*\*\*

— هل انتهت القصة؟!

— بلى .

— النهاية مبتورة ، لم توفي القصة حقها.

— ماذا تعنين ؟

— لم تعطي شخصيات القصة ابعاداً ذات قيمة . اهملتِ  
المرأة اهمالاً تاماً . كنتُ اتوقع ان تذكري شيئاً عن افكارها .  
كانتُ سلبية في جميع تصرفاتها . امر لا تقبله المرأة المتحررة .  
— هذا شأن النساء المتحررات ، اما في هذه القصة فهي لا  
تستطيع ان تصير اكثر مما هي عليه الآن .

لملمتُ مديحة اوراقها بخيبة امل صغيرة . انتظرتُ تعليق

عفاف متوقعة الأسوأ ، تورطتُ دون رغبتها :

— المفروض باعتبارك كاتبة حديثة أن تغيري شيئاً من واقعها  
الحالي . انتِ ايضاً امرأة ( ماذا تقول؟! ) لاننتظر من الرجال  
الكتابة عنا . كنت اتوقعُ منك ان تجعلها شجاعة، متفهمة ،  
راغبة في الجلوس قرب المخمور، شاعره بالآمه . تجلس قرب  
في طريق العودة مثلاً ، او تفتقده في حالة عدم وجوده .  
المهم ، ان تعطف عليه . بينما جعلتها في قصتك جبانة  
رعديدة ، لا اقل ولا اكثر .

— بث دعاية رخيصة للمرأة لا يجدي نفعا . لماذا لا تكون  
ضعيفة اذا كانت ضعيفة .

اخرجتُ عفاف لب الفستق الموجود امامها ، راميةً  
القشرة ، بتذمر، في المنفضة على المنضدة ( أف ، انتن  
الكاتبات) القصة في رأيها لا تمثل المرأة الجديدة بحق ،  
وضعت اللوم كله على مديحة التي لم تصلح من شأنها والامر  
سهل بين يديها . تمت بصوت عال :  
— احببتُ ان ارى المرأة مختلفة تماماً .

— تمني مايروق لك. لم نلبسها الغار زورا؟! القصة مبنية  
على اساس ان كل شخص ينظرُ للامور من وجهة نظر  
مختلفة ، ولهذا ساسميتها " النظر للامور " .

— اعطيتِ الايطالي السهم الاكبر في ابداءِ الاراء وشرح  
الامور بالطريقة التي تعجبه او تعجبك بالطبع . لماذا لا  
تفسحين المجال للمرأة بابداءِ ارائها؟!  
— لا تملك اراءً كثيرة .

— الايطالي مغرور يتفلسف ويعظ راضياً عن نفسه .

— وليكن ، ربما . لماذا تبغضين الايطالي لهذه الدرجة ، هل  
لانه مرتاحٌ وراضٍ عن قسمته ؟ اشعر ان للمزاج الشخصي  
دوراً في حب الشخص او كراهيته ، في القصص وفي الحياة  
ايضاً، ما رأيك ؟

— انتِ تحبين الايطالي لانه لسان حالك .

فليكن ايضاً . تناولتُ مديحة ضاحكةً كأسَ العصير الذي  
قدمته لها عفاف . تُرى هل اصابتُ الاخيرة بالتشخيص ؟ ،  
انها تهمة لطيفة ، لنرَ الى أي شيء تقود ، لا داعي للتراجع  
والعجلة ، لتكمل الجولة معها :

— افكاره تسليني ، هذا صحيح ، لكنها ليست افكاري  
كليةً ، فالحروب ، باعتقادي ، ليست مسألة تعب جسدي  
فقط ، كما تصورها . لكن هذا رأيه ، تحليله ، دعيه ، له رأيه  
وعلبنا احترامه .

— المهم لم تعني بالمرأة او تلتفي من شخصية المخمور ،  
كنتِ متحيزة .

ما قيل وما لم يقل انتهى بقيام عفاف لتحضير العشاء ، تأتي  
الواحدة الى بيت الاخرى للزيارة ، كلتاهما تحمل وداً وفهما

للثانية يتحمل الكثير من المناكفات ، العتاب ، الصراحة .  
كثيراً ما بكتُ احداهن على كتف صاحبتهما مواساةً  
وضحكتُ عليها اذا جاء المزاح . تركتُ عفاف مديحة  
وحدها ، مع دوائر قلق تحيط برأسها . انتابَ الاخيرة هممٌ  
والشك حول مصير ابطال قصتها . ما هذا الوجع والالم  
ولماذا؟! دعينا. سمعت مديحة تقول لنفسها . وضعت اوراق  
القصة في حقيبة يدها ، اخيراً . هذا يكفي . تهيأت كي تأكل  
وتشرب وتلهو ، تتحدث مع صديقتها دون اوجاع او هموم  
مخترعة . الحياة الحقيقية اهمٌ ، وهما تعيشانها . لتعبثَ الآن ،  
هناك في الغرفة مجموعة صحف ومجلات ، رسائل ملقاة على  
المنضدة بمحاذاتها . صاحتُ :  
\_ رسائلُ من العراق ، طازجة!  
\_ وصلتني البارحة متأخرة في البريد مدة شهرين . واحدة  
من امي تهنئني بمناسبة نجاحي في امتحان سيطرة السيارة  
بلندن ، اما الرسالة الثانية فهي من شاكر الملحس ، أقربيها  
اذا احببتِ ، انتِ تعرفينه .

- شاكر الملحس الذي طلق زوجته الاجنبية بعد قرار ١٩٦١  
عام ١٩٦٨ .

\_ تتذكرين القرار وتأريخ صدوره ايضا .

\_ لشدة ما كرره المرحوم نديم . تسلمه اثناء عمله في  
السفارة بموسكو . كان خجلاً منه ومن فحواه . كيف يبلغه  
للطلبة المتزوجين من اجنبيات ، في حيرة من امره ، أتذكر  
حتى صيغته ايضا . يبدأ هكذا : " يُحرم (تصوري يُحرم) كل  
عراقي متزوج من اجنبية بعد تأريخ كذا وكذا ، من حق  
التوظيف في الدوائر الرسمية وشبه الرسمية .. "

- يتدخلون في أدق المسائل الشخصية !

- لم يثر القانون هذا ما يستحقه من سخط وضجة .

- هذا القانون يشبه القرار اللامعلن عنه الذي كان

معروفاً في تلك السنوات عندما كنا في موسكو ، وكان

السبب في انتقالي للدراسة ببريطانيا ، لقد اخبرتك مرة ،

تتذكرين ، أليس كذلك ، ؟ نصحتني امي ، آنعذ ،

بالانتقال للدراسة في لندن او اية دولة غربية اخرى ، بعد

ان سمعتُ ورأتُ معظم الخريجين من الدول الاشتراكية



- عاطلين ، عن العمل ، آنذاك ، بسبب تغيير سياسة الحكومة المفاجيء ، ورفضها الاعتراف بشهادتهم .
- اعرف ، اعرف ، تصوري عقوبة القانون الاول لمن لا يتزوج من امرأة عربية وكأنها عاجزة وغير مؤهلة للزواج الا بتهديد الرجال وتخويفهم.
- مثل هذه القوانين تناسب شاكر الملحس وامثاله . لقد طلق زوجته الروسية باسرع ما يمكن وتزوج من سنية ، بكل بساطة . بعض الناس لديهم مصالح لا عواطف ، انهم انانيون فقط . أقرئي رسالته وستفهمين قصدي .
- فتحت مديحة المظروف واخرجت ما في طيه :

عزيزتي عفاف

إنه لوقت طويل منذ سماعك شيئاً عنا ( عدا بطاقات العيد ورأس السنة الميلادية ) نرجو ان تكون هذه الرسالة باعثاً لك على الكتابة اليينا، تخبريننا فيها ما جدّ حولك في هذه الحياة .

نحن مسرورون اذ نخبرك ان سنية بصحة جيدة - ما عدا السمنة المفرطة وقد سمحت لها اللجنة الطبية الخاصة

بالعودة الى بريطانيا، مرة اخرى، لاجراء بعض الفحوص، بعد ان عادت الى بغداد مع اولادنا الثلاثة ، فكانت النتيجة مطمئنة و كل شيء على ما يرام .

اعتقدت سنية انها رتبت امور ( يعرب ) ترتيباً جيداً في بداية الامر ، تبين بعدئذٍ ، ان الاخير غير قادر على الاستمرار تحت ضغوط الدراسة والحياة في برمنغهام ، على الرغم من انه اجتاز الامتحان وسمح له بالانتقال الى السنة الثانية في دبلوم العلوم والتكنولوجيا . بعدها ، قررنا ، انا وسنية ، ان نطلب منه العودة الى بغداد. وصلها سالما في السادس من شهر يناير وسجل في كلية بغداد التكنولوجية .

اجتاز ولدنا الثاني ( مؤيد ) امتحان البكالوريا في بغداد العام الماضي بمعدل ٧٧ ، وهو بصدد التسجيل في الجامعة من اجل الحصول على شهادة البكالوريوس في الكيمياء لمدة اربع سنوات ، وقد اجتاز امتحان كمبردج باللغة الانكليزية ، ايضاً ، ولديه ستة مواضيع بمستوى شهادة الثانوية العامة ، بضمنها الكيمياء الذي اخذه مع المجلس البريطاني ببغداد .

سيكون عمره ١٧ عاماً في فبراير .

نجح ( رغيد ) في امتحان البكالوريا للدراسة المتوسطة ، كان معدله ٨٥ ، كما نجح في امتحان كيمبرج العادي في بغداد السنة الماضية ، وهو الآن في السنة الرابعة في مدرسة ثانوية جيدة ، ويأمل ان يكون مهندسا معماريا في المستقبل . اجتازت ( غادة ) امتحان الصف السادس الابتدائي بتفوق ، وهي متقدمة على جميع الطالبات في صفها الاول المتوسط . كان معدلها في النصف الاول من السنة الماضية ٩٣ .

كما نال شاكر حصته من الامتحانات في بغداد ايضا! فلقد اجتاز الامتحان النهائي بتعيينه مديراً عاماً في وزارة التربية والتعليم ، ومن المؤمل ان يصبح وكيلا للوزارة قريبا وبعون الله ربما اصبح وزيرا .

انتقلنا الى بيت جديد حديث البناء في حي الفردوس ، وقد اضفنا اليه ، مؤخرأً ، مطبخاً ثانياً ، وبنينا فوقه غرفة اضافية . هناك اربع غرف نوم واسعة به ، بالاضافة الى غرفة استقبال كبيرة تستقبل الزوار عسى ان تكوني يوما من بينهم . مع اطيب التمنيات .

شاكر الملحس

\_ وهل تلومينه اذا ما طَلَّقَ زوجته الاجنبية ، لن ( يُحرم )

الآن من الوظيفة ، سيصبح وزيراً !

\_ هذه شخصيته ، تعرفتُ عليه جيداً بلندن ، وتعرفين حالة

الغريب للغريب ، قبلتُ به على علاقته.

\_ شخصٌ من هذا النوع لا يرفُّ له جفنٌ ولا يعرفُ الرحمةَ

ولو رأى الشارع مملوءاً بالجثث ، ما دام هو واولاده بخير

وامواله باقية.

\_ بالضبط ، صدقت.

\_ هل ستجيبين على رسالته ؟

\_ لا ، ابداً . عند الشدائد يعرف الاخوان . طلبتُ منه قبل

سفره الى بغداد اخباري عن اهلي واوضاعهم ، سمعتُ ان

الحكومة تسعى لاجراج زوج اختي الايراني الاصل من

العراق ، ربما أبعدَ الآن ، انا قلقة جداً وحزينة، وهو يعرف

ذلك ، لكنه لا يعبأ . رسالته مجرد نشرة اخبار عنه وعن

انجازاته هو واولاده ، كلها نفخٌ في نفخٍ ، اما دعوته لي

لزيارتهم فهي لا تقل دعاية عن ذلك ، يُريد ان يطلعني على  
احوال ومظهر بيته ، لا اسمي هذه الدعوة كرماً او ضيافة.  
\_ طبيعةُ صاحبنا لا تختلفُ عن طبيعة الحيوان .

\_ وليس كل حيوان ، انظري الى طبيعة كلبتي (لولوة)،  
تحب باخلاص ، تتفانى في الدفاع عني اذا ما وطئ دخيلاً  
عتبة داري ، اشعر انها تكتب معي في حزني وتهزّ ذيلها  
فرحاً اذا ما التقت بي او رأت اصدقائي.

كانت عفاف تتكلم مبتسمة مع الكلبة السوداء ،  
والاخبرة ظلت تروح وتجيء معها ، من المطبخ واليه ، بعد  
ان شمت طعاما . اغلب الظن انها كانت طامعة في عظمة .  
تقدمت مديحة من المائدة بعد ان هياتها عفاف:

\_ اوه ، ما هذا الطبق المثير . طعامك يبدو لذيذا . تعلمتِ  
الكثير في هذه الايام.

\_ الطبخ هوايتي منذ مدة .

\_ ونعم الهواية . سيغفر لك الزوج المقبل اراعك المتطرفة  
واخطائك الجمّة .

\_ واين هو الخائب !؟

— دعينا من السخرية ، ما الطريف الجديد في علاقاتك ،  
هل ستبقين مطلقة ام عثرتِ على الزوج المناسب؟ هل من  
فضيحة؟

جلستا على الأكل ، متناولتين المناوشات والمزاح فيما  
بينهما بلذعة بهارات صحية.

— اعوذ بالله ، جربت الزواج وكفى .

فرشتُ عفافٌ منديلَ الطعام بحضنها تدمدم :

— لا تراوغي ، هذه الاقراط المدلاة ، التسريحة الجديدة ،

النجاح في السياقة ببريطانيا ، كلها ستجلب لك الرجال  
جزافاً ، لن يتركوك وشأنك ، سيطاردونك ، يتصلون بك  
هاتفياً ، يتقصدون ملاقاتك ، يتشمشمون ، حتى يفوز بك  
احدهم .

— الله يقطعهم !

ردتُ عفافٌ بشراسة .

— وهذه ، ايضاً ، علامة اهتمام زائد .

— الله اكبر!

— طبعاً اذا كرهتِ شخصاً فكرتِ فيه اكثر .

\_\_ تحاليلك النفسية هراء . اخبرك ، من اجل راحة فكري ، لا  
يُلدغ المؤمنُ مرتين .

\_\_ هذا محتمل ، ولكن هل هناك عقرب ؟ هذا هو السؤال .

تملمتُ عفاف ، توقفتُ عن الاكل اثناء مضغ لقمتها ،

اشتقتُ ان تخبر مديحة بشيء ، آه يا ولد ، لو تعرف :

\_\_ اعوذ بالله منك ومن شركِ ومؤامراتك . اتقي الله يا

امراة . اذا اردتِ الصديق ، الشخص الذي في بالي الآن لا

يشبه العقرب في شيء ، وهو طيب ، طيب ، يا حلاوته ،

لكن لديه ، للاسف ، عيب واحد ، آه ، من الدنيا الملعونة ،

لا يوجد فيها انسانٌ كامل .

\_\_ وما عيب المسكين المظلوم !؟

\_\_ الخمرة .

\_\_ لا تقولي انه مدمن !

\_\_ بالضبط ، ولكن الذنب ليس ذنبه ، جرته اليه احدى

النسوة المسنّات الثريات في باريس كي يبقى قربها ، انه وسيم

كأحد آلهة الاغريق . هجرها اخيرا ، دون ان يستطيع

التخلص من عادة السكر الآن . يبكي الحزين ، كي اقبل

الزواج منه ، يمسك بيدي ، احياناً ، وينشج كالطفل .  
ارسل لي رسالة ، قبل اسبوع ، يتوسل كي اتزوجه ، في  
الشهر القادم .

انصرفت عفافً تفضح اسرارها ، دون رفق

بالمفاجآت :

— هذه انباء جديدة عليّ تماماً.

— لا احبذ اذاعتها خشية الاّ تتم .

— وهل سيحصل شيء ؟

— لا مستحيل ، لا يمكن .

— أ بسبب السكر ؟

— بالطبع ، هل يحتاج قلبي للعذاب مرة اخرى ! لا ، لن

افرط بحريتي وراحة بالي .

قهقهته مديحةً عالياً :

— الآن عرفتُ معنى الدق والمدقوقة . أتذكركين قصتي التي

قرأتها قبل هنيهات ، حول السكر ، فهتمتُ كل شيء الآن !



شهقتُ عفافُ فانتفض قميصها . هزتُ رأسها بعنف  
جازم . رفعت ذراعها تريد ان تنال مديحة بالهش والنش ،  
مرددة تأكيد النفي والاحتجاج البالغ :  
\_ يا لئيمة ، يا متسلطة ، كان بالامكان جعل المرأة في  
قصتك عطوفاً حنوناً ، تقبل بالسكير على علاته ، لماذا  
حرمت المسكين من رحمة العلاقة، ماذا سيضرك يا قاسية؟!  
تجنبت مديحة الكف المهووش الموجه لها ، لا تتقارع  
معه ، لا تريد ان تنالها اطراف انامل رقيقة ، صاحبها تهدد،  
متمرسه على الكرّ والفرّ، دون امل في الاعتراف بالهزيمة.

\*\*\*\*\*

## جبل السرة

تهرم الاماكنُ مثلما يهرم البشرُ. محطة قطار " كلوستر رود"  
سنة ١٩٨٧ تختلف عن المحطة سنة ١٩٧٠. كونها شاخنة ،  
غارّة ، تجعدتُ، شهبّتُ ، ظهرت عليها نتوءات وزوائد ،  
امحت مظاهر من المستحسن احيائها .

ستسعف بالجبس ، ترمم بالمساحيق ، الاصباغ المثيرة ،  
المرمم والملابس الخشبية الثمينة . ولربما تزول الاماكن تماما  
ولا يبقى منها الا آثار ، كاصابع واذرع جداول وانهار  
يابسة رأتما، وهي في الفضاء طائرة ،اثناء عودتها الى وطنها  
الاصلي ، العراق ، قبل عشر سنوات." اراضي السواد " تُرى  
من بعد عظيم، شقوقاً واحاديث متعرجة ، لا انتهاء لها .  
معظمها ، كان عامراً بالانهار والترع ، كما هو معروف،  
تسقي الارض الخصبة الممتلئة بالبشر والنبات الداكن حتى  
سميت " سوادا". قيل بلغ عدد سكانها اكثر من ثلاثين مليون  
نسمة ، في ذلك العصر ،والآن لم يبق الا الثلث ، فكيف  
اذا طُرحت اموات الحرب العراقية /الايروانية ؟ مزيد من  
الكونكريت واشتداد في قسوة المناخ، الا يكفي الحر  
والغبار؟! يبدو انهما لا يكفيان، لابدّ من حرب ، ايضا ،  
يقول المذيع هناك : " هنيئاً لكم با ابناء وطننا " . الارض  
وآثارها لا زالت باقية مدمرة، البشر صاروا يلوبون ، تبعثروا  
في الكوكب الواسع ، لكن لا فكاك لهم ،خفقتهم رغم

كل شيء مع تلك البقعة ، مشدودين كاطفال ما فتئوا  
مرتبطين بجبل السرة .

احتُ انواع من المحاصيل الزراعية. اختفت بعض المناظر  
والالوان . صارت بعض المناطق شظايا ، سبخاً ، ارضاً  
صفصفاً كصحراء الزبير ، وظلت الاصابع الناشفة النحيلة  
تتهجس بين التراب ، طوبلة متلامسة متصلة ببعضها  
البعض ، ممتدة من مدينة الموصل الى البصرة ، وكأنها تفتش  
عن شيء ضائع . عندما اقتربت الطائرة من اليابسة  
كثيراً، قريبا من العاصمة بغداد ، انبثق الذراعان العظيمان ،  
نهر دجلة والفرات ، متعاضدين ، يسيران بهمة ازلية ،  
فانهملت دموع كحليب الام ، مسحتها بلمح البصر ، اثناء  
الهبوط في المطار .

النهران يسيران باصرار ودأب . يسقيان كل ما يصادفان  
دون تحفظ ، الاقوام جميعاً ، الاديان ، الاجناس ، دون  
تفضيل او تمييز . حضارات بابل ، سومر ، آشور ، الدولة  
العباسية . النهران مضيافان ، كعادة كل نهر على وجه  
البيسيطة . فجأة تظهر معالم الانسان . بنايات ، طرق حديثة

على شاطئ دجلة الذي تتباهى به بغداد : " هنا " ، اشار  
اصبعُ احد الجالسين في الطائرة قربها : " هناك " ، ممنوع ، لا  
يحق لنا السير " هناك " . اشار هذا الاصبع الى مساحة تعادل  
الكيلومترات بحركة انج واحد سريع ، والنهر من تحت  
يلصف زاهيا ، امواجه الهادئة غير عابئة بما تسمع ، تهرز  
رأسها وتنحدر . لا يحق لنا السير في هذا الجانب من النهر  
لمسافة كيلومترات . الاسباب لا تخصك ، اشياء متعلقة  
بالمصلحة العامة . اقدار النهر كاقدار البشر ، منها ما ينضب  
او يضيق ، يُطمر او يلوث او يلوى اتجاهه ، ماذا تتوقع .  
سقطت الطائرة في مطار بغداد ، هكذا احست ، متشبثة  
بالمقعد . اقتربت من " الممنوع " الذي لا تدري ما هو  
بالضبط ، وانما سمعته من الآخرين ، محذرين ، ناصحين .  
انظري فقط . ولكن عليها ان تفتش عن حقائبها ، هناك  
هدايا .

مواعيد قطارها في محطة " كلوستر رود " مضبوطة ، كل  
عشر دقائق تقريبا . المطر يهطل في سماء لندن ، دون موعد  
سابق . مظلات تقي . سقوف تحمي ، وهناك جواز سفر

بريطاني في شقتها ، ازاحتُ صخرة ما يُسمى "المنع" في جوازها . صخرة ملقاة بتعمد ، عثرة في طريق ابناء جلدتها . انهم يستميتون الآن لزحزحتها، وعندما جاءت الى لندن قبل عشرين سنة ، كان "المنع" شيئاً عادياً مألوفاً ، لا تستنكره ، كلمة شملت معظم فعاليات حياتها ، تمر عليها مثل المرور على كلمات "عبودية الرقيق" الى ان سنّ قانون تحريرهم في بلد تاجر بهم كثيرا .

تراقب الغادين والقادمين في محطة القطار ، هذه تشبه (خديجة) ، وطريقة سير ذاك مثل مشية (صالح) . كانت تجلس مع الاولى اثناء اوقات فراغهما ، في نافذة شناسيل بيتهم بالبصرة ، لعله احد المارة في الشارع ، وحينما تلمحانه من بين ثقوب الخشب الصغيرة البخيلة ، تعصر خديجة يدها لهفة واشتياقاً. يرونه ، احياناً ، في اثناء ذهابهما الى "سوق الهنود" ، مجرد النظر اليه كافٍ لاعلاء درجة حرارتها . لماذا سُمي "سوق الهنود" ؟ ، كانت في مدينة البصرة قبل سنة ١٩٥٠ قوميات لا حصرَ لها ، طوائف واديان تمارس طقوسها في احتفالات شعبية جماعية . تتذكر جيرانهم

وخياطتهم ( توية ) اليهودية . لماذا تلجا للتشبيه الان؟! اقارب واصدقاء في وطنها ، تفتقدهم دون وعي ، تفتق ذهنها عن ايجاد حلّ، عن حيلة ، هناك التشابه والتماثل ، يا للمهزلة ، هذه القادمة من بعيد، تشبه فتاة عرفتها من بنات ناحية " ابو الخصيب " ، ما اسمها ؟ على طرف اللسان ، آه نسيته ، لا زالتُ حجولا ، تتلكأ في مشيتها ، ذات سمرة صفراء ، وسيمة الى حدّ ما ، بحاجة الى الثقة بالنفس . ماذا حلّ بها الآن تُرى؟! يقال ان منطقة " ابو الخصيب " خالية بعد قصف الحرب العراقية/ الايرانية . هذه ، الآن ، القادمة نحوها ، تشبه حالتها (بهية) ، بنفس السمنة، المشية البطيئة المحدودة، نزلت على التوّ من درج المحطة ، هل تستقبلها؟! اخجلي ، زحزي وركيك قليلا ، ربما ترغب في الجلوس قربك ، معك على المقعد . ماذا حلّ بها الآن تُرى؟! صاروا بسبب الحرب العراقية / الايرانية ، لاتسمع عنهم سوى نتفٍ، كالأشباح والاوهام في ذاكرتها . السفر ممنوع . الرسائل تضيع . تمنى لو تعثر على بقاياهم وآثارهم ولو بشخوص التلفزيون البريطاني . تشبث بملامح

واشارات ،تساءل : الأ تشبه الممثلة ( جليندا جاكسون )  
صديقتي زاهدة؟! وعبوس تلك الاخرى أليس كعبوس (   
صفية) ؟ تتلمس اهلها، قومها، بلدتها ، تذكر  
عيوناً،ضحكةً ، صلعةً، حركاتٍ،ولديها باسبورت بريطاني  
خالٍ من كلمة "المنع" .

الآن، ما هذه المغناطيسية في التشابه . آخذة بتلايب امرأة  
اجنبية اخرى جالسة معها على المقعد العام بالمحطة  
قبلها ، منكفئة على تربيت ومداراة شيءٍ ما في حضنها .  
ما هو ؟ هل هو طفل؟! لا ، لا يعقل . انه شيء صغير جداً  
على ما يبدو، ولكن ما معنى منديل الرأس الذي يغطيه ؟ لم  
يكن شيئاً تستطيع حدسه .

بدلاً من ذلك ، تتأمل عفاف منديلاً ملوناً ، يخرج من  
حقيبة يد . تمسح به المرأة الواقفة ، امامها، جبينها . تذكر  
والدتها قبل وفاتها بثلاث سنوات ، ويعلن لها الخبر بالهاتف .  
اتصالات بالاسلاك ، وحتى هذه الاتصالات صارت ، بعد  
الحرب ، ترفاً. الخطوط المباشرة ليست متوفرة. الاتصال  
يجري عن طريق البدالة . سوف يرتفع صوت عاملة بدالة

الهاتف ببغداد، منبئة بالوعد : " يُرجى الانتظار ، سِلبى طلبك بعد قليل ، وشكراً " لا شكراً على واجب ، او كما قال جابي مصلحة نقل الركاب هناك : " الشكر لله " ، طيب اتفقنا. ستنتظر خطأ هاتفياً ، كما وعدتها عاملة البدالة قبل قليل ، لمدة نصف ساعة، ساعتين، نصف يوم واكثر: " يرجى الانتظار ، سِلبى طلبك بعد قليل ، وشكراً " لكنه موت والدة : " يرجى الانتظار ، سِلبى طلبك بعد قليل ، وشكراً " ، للمرة الثلاثين ، تكرر آلة التسجيل العبارة ، وكأن عاملة البدالة الحقيقية في بغداد تقول : " كفى تباكياً. امراض القلب بالجملة . ممنوع السفر ، ممنوع ، ممنوع ، ممنوع . الشباب بميعة الصبا يموت . الحرب وعمر الزهور ، ما اكثر طلباتكم انتم ، البعيدون "؟! كل هذا وهي تنتظر ، تريد التفاصيل انها ام .

على مستوى الذكريات والصور الفوتغرافية القديمة ، انها اميل للبدانة ، تخرج ، احبانا منديلاً تمسح جبينها ، تتذكر حقيبتها التي طالما حوت اشياء صغيرة . تعرضها بين حين وآخر امامها للتأكد من شيء ما ، محفظة بحجم الاذن ، هذه



للدنانير العراقية ، بعض الرسائل والاوراق المعفسة ، تعود  
مرة اخرى وتحتفظ بها ، اذا ما ارتأت جدواها ، ثم المنديل،  
منديل الرأس ، كانت والدتها تحتفظ به . انها تخاف البرد  
كثيرا. يشبه منديل راس الذي يجلس في حضن المرأة قربها  
الآن . أهوَ طفل ؟ تعود للتكهن مرة اخرى . حجمه صغير  
جدا ، لا يعقل .

المطر يتزل رذاذاً . الحمامُ في محطة " كلوستر رود " يخفف  
طيرانه ، يهبطُ على ارضها، يقتربُ سائراً بين ارجل الواقفين  
والجالسين . يطعمه ، احدهم ، اثناء ما كان يقضم شطيرة  
في يده ، ينظرُ الحمامُ للجميع دون سابق معرفة . الشيء  
الوحيد الذي لم يتغير في المحطة حمامها . انه الرمادي نفسه ،  
يترزق مما يصادفه وما يقع من فتات بين الارجل ، وما يعلق  
في زوايا المحطة المتآكلة . قالت عفاف لجليستها الحاضنة  
الشيء الصغير ، والذي اثار اهتمامها ، بعد ان نفذ صبرها  
من المقارنة :

\_\_ يا لألفة الحمام ، كأنه يخاطبنا !  
\_\_ اجلُ ، ولكن انظري ما نفعل به .

رفعت الحاضنة طرفاً من منديل الرأس باعتناء فوجدتها.  
حمامة رمادية خاتلة تحته . قالت :

\_\_ انظري ما فعلنا بها !؟

لم تعد بحاجة الى وصف ، الحمامة مشروخة العين مدمامة  
تشرئب الى الاعلى بعنقها وبعين سليمة واحدة :

\_\_ رماها احدهم بعلبة كوكاكولا فارغة فشجَّ عينها اليمنى  
\_\_ مَنْ فعل هذا !؟

\_\_ ولد هايش طايش في الرابعة عشرة من العمر ، صوب  
العلبة الفارغة عليها ومضى ، كأن شيئاً لم يكن .  
\_\_ ماذا قلت له !؟

\_\_ ماذا اقول ! عجباً ، هل يرضى ان يفعل احدٌ له مثل هذا  
. رماها بالعلبة الفارغة ومشى ، سوف آخذها معي الى  
البيطري في محلتنا .

ارتقا الحمامة بكامل جملتها . العين اليمنى مهروسة هرساً ،  
واليسرى باقية سليمة ، حارة ، وتبلعم الرقبة .  
\_\_ سوف آخذها معي ، لا يمكن ان اتركها وحدها .

امراة بسيطة حنون ، تحضن الحمامة بكل جدارة.  
العين المهشمة تنزل دما. ابراً صغيرة ، وتدور الاخرى في  
حدقتها صافية . تلبص للمرأتين المتوجعتين ، لكنها عين  
صامدة ، تلصف :

\_ آلامها ، بالتأكيد ، فظيعة .

\_ لاشك .

\_ لا تستطيع ان تقول شيئاً ، انها تنظر فقط . رايتها تدور  
من الالم ، تدور ورأسها اكثر دورانا. حتى جناحها تهدلا  
على الارض ، صارا ارجلاً، ظلت تمشي على اربع ،  
وبجناحيها ايضا . لكنها لا تستطيع ان تتكلم . انها تنظر ،  
فقط ، تنظر .

\*\*\*\*\*

## الخال

أحكمتُ اغلاقَ السيارة وهي تغادرها . هرعتُ للباب  
داخلة الدار . انواع الاكياس النايلونية في الممر توحى بأنه  
متسوقٌ من مخازن شتى وبكمياتٍ ضخمة . سمعته يناديها:  
\_ عفاف؟! \_

\_ نعم خالي .

\_ تأخرتِ بنتي .

\_ هذا هو الدوام في بريطانيا ، خالي ، من التاسعة صباحاً  
حتى الخامسة مساءً ، بالضبط .

\_ تصورتكِ تأتين في الثانية ظهراً ، مثل دوامنا بالعراق ،  
قلقتُ عليكِ .

اقتربت عفاف من الغرفة ، التي كان خالها منسرحاً فيها  
على اريكة ، مبتسمة باستغراب ، . اسرعتُ يداها ، دون  
وعي ، باحتضان خصرها :

\_ خالي ، ما معنى هذا؟! لي عشرون سنة اعيش فيها  
وحدتي بلندن ، والآن تأتي لبضعة ايام وتريد ان تقلق عليّ  
؟! ما هذا الكلام خالي ، الله يحفظك .

— والله يا بنتي صحيح . انتِ محقة ، ولكن عقلي لا زال  
هناك. اعذريني ، انا اعرف انتِ سبعة ولا اقول ابنة سباع !  
— شكرا ، طيب ، والآن احكي لي ، ماذا رأيتَ ، وماذا  
اشتريتَ ؟

— رأيتَ عجائب وغرائب . مختصر مفيد ، الله يخلق والناس  
تبتلي . لكن وآسفاه على الشباب ، خالكِ اليوم غير خالكِ  
بالامس ، والآن ما كنتُ عائدا للدار ، قسماً ، الا في  
الساعة الرابعة فجرا .

ضحكتُ بصوتٍ عالٍ . كانتُ تعرفه قبل مجيئها الى  
لندن ، ذا لهو وأنس ، لا يغفل عن ذكر شبابه ، متحديا  
شيخوخة ، لا يستطيع مقارعتها ، دبتُ اليه منذ مدة ،  
فعمره يتجاوز السبعين ، ناكراً ان يكون في الثمانين ، يهمل  
هذا كله عندما يوجه اليه كلام في شؤون النساء ومقتضيات  
الزينة . كان يصبغ شعره اسود حالكاً كالليل منذ زمن  
طويل ، يلبس قمصاناً حريرية جذابة ، ونادراً ما رأته ناسياً  
مندبلاً ملوناً مطلاً من جيب سترته الصغير الاعلى كعرف  
ديك احمر .

دنت عفاف منه في الغرفة :

\_ اعذريني بنتي ، رجلاي تعبتا من السير ، هذا شارع

" اكسفورد" ما اطوله !

\_ هل اكملتَ ما تريد شراءه .

\_ نعم ولا ، اشتريتُ فساتينُ لخالتك لطيفة وبناتها .

أوصيني ان اشترى كل شيء أراه امامي ، حتى بكرة

الخياط . السوق ، بسبب الحرب ، كما تعرفين ، نار

وشرار، الاشياء ، اساساً، غير موجودة في معظم الاحيان .

\_ اعرف . هل اشتريتَ لهنّ معاطف ؟

\_ معاطف ؟ لا ، اشترى غدا .

\_ وهذه الكومة من الاكياس ، أكلها فساتين لهنّ؟! اراها

كثيرة .

\_ بدلتان فيها لخالكِ . لا تنسي ، انا لي حق ، ايضاً ، أليس

كذلك؟!!

\_ بديهي .

من الآن فصاعداً ، اوظف طاقاتي كلها في الذي تريده

خالتك لطيفة، عندي قائمة طويلة عريضة ، كتبتها هي

وبنائها ، دائما : لاتنس هذا ولا تنس ذاك . عندما انتهى من  
رغباتهن ساشتري لها، شيئاً على ذوقي . هدية مناسبة .

شيء خصوصي بيني وبينها.

ارادت عفاف ان تذهبَ للمطبخ فتلكأت ، ودّت ان

تمازحه عابثة :

\_ وهل لا زلتما على العهد ، علاقتكما كما كانت في

السابق ؟

\_ واكثر !

اصرّ متحديا .

الخالة لطيفة ، زوجته ، وقع في غرامها في الاربعينات ،  
اثناء ما كانا يدرسان معا في كلية الحقوق ببغداد . كانت ،  
آنذاك ، من النساء الرائدات الاوائل اللاتي دخلن كلية  
مختلطة الجنسين ، رغم أنف مجتمع محافظ حرم نساءه من  
تعلم القراءة والكتابة وعزّلهن عن الرجال عزلة مرضٍ معدٍ .  
خلعت عفاف حذاءها وتهيأت كي تنظم منضدة طعام  
صغيرة في طرف الغرفة . جيئةً وذهاباً ، وكأنها ترقص باليه ،  
أكملت صف الاواني واخرجت طعاماً من الثلاجة في المطبخ

ثم عادت الى الفرن . كلُّ شيءٍ معدُّ سلفاً ، على ما يبدو ،  
حتى السلطة .

— بنتي عفاف ، ارجو الا اكون ثقيلاً ، انا تغديتُ في  
الخارج .

— هيا بنا يا خالي ، انتَ ضيفي العزيز، وكلُّ شيءٍ جاهز .  
تعال ، تفضل .

قامَ من استلقاءته بصعوبة . أنَّ بصوتٍ وجيع . ثم قرَّب  
احد الكراسي منه كي يعاونه متوكئاً عليه ، مكماً بقية  
وقوفه على الاقدام . سار الى الحمام قبل ان يعود فيجلس  
على كرسي بجوارها .

— انتِ تذكريني بامي . كانتُ وردة قبل ان يتزوج عليها  
ابي الظالم .

شعرتُ عفاف انه سيبدأ قصة . حمل تاريخه معه  
ضمناً، منذ ان وصل لندن . يرويه باستمرار، منذ مجيئه اليها  
قبل بضعة ايام . يزورها على اعتبار انه احد التجار  
المستوردين العراقيين القلائل ، الذين سمحت لهم الحكومة  
بالسفر ، رغم ظروف الحرب العراقية الايرانية وتقييد حرية



السفر لبقية المواطنين . سُـمـح له على اعتبار ان تجارته  
تستوجب الاتصال بالسوق الخارجي والوكلاء. وفي كل  
الاحوال، انه يعيش الآن في مجبوحة ببغداد . تكفل له عيشته  
بيتاً انيقاً وسيارة مرسيدس، معتبراً من الطبقة الثرية التي نمت  
باطراد في السنوات الاخيرة ، نتيجة اقتناص الفرص والحظ  
والصدفة ، مع دهاء اجتماعي وسياسي ، في مناطق لا  
يكون النجاح فيها، عادة ، محض جدّ وكدّ واخلاصٍ  
وذكاء .

\_\_ عندك سيجارة عفاف ، انت لا تدخين ، أليس  
كذلك ؟

\_\_ عندي ، لكنها ممنوعة عليك ، الطبيب قال ذلك لقد  
أخبرتني .

\_\_ الطبيب ! ومن قال ان الطبيب يفهم ؟! انه لا يفهم  
بقضايا الانسان . يفهم بالمعدة والحنجرة والقلب والكلية  
وهلم جرا .. اما الانسان فهذا موضوع آخر لا يفهمه .  
انا مشتاق وعندي لوعة ، عفاف ، سيجارة ، بنتي رجاء .

اثار عطفها بحيلته وتوسله ، يا الهى ، ما زالت لدى  
هذا الشيخ قدرة على استمالة القلوب .  
\_ طيب ، خذ واحدة فقط لا اكثر .

اخذها منتعشاً ، ثم قام من مقعده من امام المنضدة  
وفتح التلفزيون . كانت الأخبار على اشدها : " واصل  
الجانبان حرب المدن في الحرب العراقية / الايرانية ، فقد  
ذكرت طهران انها استخدمت حتى الان ٩٥ صاروخا  
ضد المدن العراقية ، بينما قال الجانب العراقي انه اطلق  
١٧٠ صاروخا حتى يومنا الحالى ، وانه سيستمر باطلاق  
الصواريخ على المدن الابرائية حتى يرضخ الجانب الايراني  
لدعوة السلام وبشروط القرار ٥٩٨ الصادر من مجلس  
الامن .. "

\_ يا ويلي عليكم ، اين المفر . ابنتي عفاف ، اغلقي التلفزيون ،  
رجاءً ، اعصابي على شفا انهيار من لا حيلة عنده . \_  
كيف ينام هؤلاء المساكين المدينون ، عجباً .  
\_ عندما كنتُ هناك ، ننام بعد ان نقول الشهادة للخالق ، وفي  
ظني انهم ما زالوا يفعلون ذلك . نتهاياً لمواجهة ربنا ، وخالتك

لطيفة المسكينة ، لا تهجع ابداً ، سواء أكانت هناك موجة صواريخ أم لا ، فالامهات يتحملن كل عذاب ولا العذاب الذي يلاقيه ابناؤهن ، انها قاعدة عامة ، هذا ، ايضاً يذكرني بامي ، جدتك .  
\_ وكيف كانت جدتي تتعذب ، لم يأخذوا اولادها من فراشهم لساحة المعارك . في الاقل ، لم تكن هناك حروب كهذه في زمانها .

قالت عفاف ، قبل ان تسأله اذا كان محتاجاً ان تجلبَ له كرسيّاً كي يرفع اقدمه عليه ، فشكرها موافقا على اقتراحها .  
تأوه ، افعا اقدمه عن الارض ، متكئاً على وسادة خلف ظهره ، نافثاً الدخانَ عالياً ، ثم جمّع نفسه :

\_ كانت لديها حروب من نوع آخر . معارك وهموم مختلفة .  
طيب ، اضرب لكِ مثلاً : كنتُ الولد الوحيد عندها ، كما تعرفين . أهزأ بمن يريد كبحي او يحاول الحد من حربي ، كعادة الشباب دوماً . كانت والدتي مع اختي الاثنتين الحريصات على حمايتي من تهديد ابي ووعيده في حالة عصيانه ومخالفة امره . هنّ درعٌ لي يمنعن الاذى عني ، وفي حالة حرب واستنفار دائمين .  
لذا استغللتُ هذه الحماية المتطوعة لآتمتع بمقتضيات اللهو

والانس كما اشاء ومن دون رافة . سهرأ حتى الصبح بنوادي  
القمار والسكر في ملاهي البصرة وحناتها ، وما هي الا مواخير  
لطلاب الفساد والغواية . الفترة التي اتحدث لك عنها، بعد الحرب  
العالمية الاولى واثناها، أي سنة ١٩١٤ . الزمن ما بين عصرين ،  
العثماني والبريطاني . الانهزام لجيوش الاول والانتصار للثاني .  
الفترة المشوشة المضطربة ما بين قديم وجديد . ضياع للمقاييس  
والقيم . تهيؤٌ للدورة الكبرى القادمة من اجل استقرارها . أي  
قبل الضربة الاخيرة . يأتي حكم ويذهبُ آخر . في تلك السنوات  
القلقة المنفعلة اصطخبت البصرة ، تلك المدينة الوديعه الاليفة ،  
بعشرات الغانيات والراقصات وبائعات الهوى المستوردات . كنا  
نسميهن " تياترو" ، اظنها كلمة تركية او فرنسية ، لا ادري .  
وان كنتُ ادري ان تضيق الخناق على اختي الاثنتين ووالدتي  
صار على اشده - بالمناسبة ، كلما اشتد الفساد عند الرجال  
ازداد التضيق على نسائهم لا يخرجن من الدار الا مرة واحدة  
او مرتين في السنة لزيارة اقاربنا في ناحية " ابو الخصيب" .  
مجلات بالحجاب ، في عربة يقودها حصانان مُسدل على  
جوانبها شرشف للحيطة والحذر . اذكر مرة ، وقد ذهبتُ مع

نساء العائلة الى بستاننا في تلك المنطقة الزراعية ، وهذه مسألة  
تتخذ فيها تدابير وقائية وحماية مضاعفة ، بالطبع ، يخطط لها قبل  
اسابيع ان لم تكن شهورا . هناك واثناء صلاتهن ، فترة الظهر  
بالباحة ، وبينما شعرتُ انهن غافلات ، منهنمكات بالتكبير  
والتلاوة ، اخذتُ نعالهن المصفوفات قرهن ، واحداً بعد الآخر ،  
والقيتها في النهر الصغير المجاور . لم يشعرن بفعلتي الا بعد انتهاء  
صلاتهن وسلامهن على الملائكة في الجانبين . اسرعتُ بالاختفاء  
وراء نخلة " برحي " قصيرة سمينة الجذع ، اعداقها متهدلة حولها  
بموسم الثمر كاثداء عشر نساء مرضعات . اخفتني ، لكنها  
بالتأكيد ، لم تستطع اخفاء صوت ضحكاتي المحبوسة في صدري  
والتي جنتُ كي تخرج للخارج بقهقهة وراء اخرى متلوية  
كالعواء ، فضحتُ مكان اختفائي وجرمي اخيراً . يا لتلك  
النساء المطيعات المولولات العابدات ، اللواتي يحملن كل سنة  
تقريباً ، اذا ما اراد الرجل ذلك ، ويطلقهن ، ايضاً ، اذا ما شاء ،  
ببساطة ، او يتزوج عليهن لمجرد نزوة عابرة . على اية حال ،  
هؤلاء النسوة ، سرعان ما غفرن لي فعلتي وجرمي ، بعد لحظات

قلائل . كنتُ في الحادية عشرة آنذاك ، لا يحاسب المرء كثيراً في تلك السن ، أليس كذلك ؟

سأل عفاف وهو يراقب وجهها، تسكب له شيئاً في القدرح .  
اسرع بالافصاح عن رغبته في حلاوته :  
\_ ملعقة سكر بنّتي .

ناولته القدرح ، كما طلب ، مضمرة له سؤالاً ملحاً :  
\_ وهل حاسبك بعدئذ ، أي بعد ان كبرت ؟

شرب الخال جرعة حارة ، وأنّ ووناً . متأسفاً، كعادته ،  
على ما فات . وجدها صلبة ، لا يمكن اقناعها . تريد الحقيقة ،  
دون لفٍ او دوران . تنتظر منه جواباً صادقاً وكأنها فرصتها  
الوحيدة وهو الشاهد الاخير .

\_ آه ، ما حصل ، بعدئذ ، اتذكره والعن الشباب . فكما قلتُ  
لكِ، كنتُ معجباً بنفسي وبطاقتي على الغوص والقنص فيما  
تضمّره تلك الاماكن اللعينة الجديدة، من هو وعبث وفسق .

اعود في الثالثة والرابعة صباحاً ، مترنحاً من فرط الخمرة ، حتى لا  
استطيع تمييز خيالهن من شبكة ثقوب الشبابيك المضيئة ، وان  
كنتُ واثقاً انهنّ بانتظاري ، كي يفتحن الباب لي قبل ان اقرعه

خشية ان يستيقظ والدي المتجهم ، الغامض ، خائفات مما بيته لي . كانت واحدة منهن تسرع ، بمجرد ان يلمحني ، بعيداً في الشارع ، حافية القدمين ، سريعة الحركة ، كي تفتح الباب الكبير لي ذا الصرير المتحشرج الأجنح ، لكنه بالتأكيد افضل من طرق مطرقته الحديدية الضخمة ذات الاطلاقات الثقيلة الهادرة التي تكاد تتوعد اصحاب الآثام .

— أو لم تؤنّبك جدتي يوماً؟! أتركتك راتعاً بالغنيّ على حساب راحتها وسهرها وراحة بناتها؟

— مرة واحدة . كانت المسكينة دون تجربة او خبرة . لا تعرف القراءة او الكتابة ، منع اهلها عنها ذلك ، وعن بناتها ايضاً . هذا زمن ما بعد الحرب العالمية الاولى بقليل . تذكري . قليل من النساء من كان يقرأ او يكتب . الهمّ الا في بعض الاحيان كن يقرأن القرآن . كانت والدي تراني عالماً بالنسبة

لها ، فأنا اقرأ واكتب الرسائل . بقيت تحترمني رغم خصالي الذميمة . وهي ، بدورها ، لا تستطيع ان تتصور ما الذي يجري في الخارج . عندها فكرة عامة مشوشة ، ولديها حب كثير لي . انا واثق من ذلك . هي لا تقسو عليّ كنت اعرف .

— يا لصبرها ، فقط مرة واحدة.

— نعم ، دخلتُ عليّ في غرفتي مرة ، بعد ان اويتُ الى فراشي ،

بعد رجوعي من سهري منهكاً ، تعباً ، خدرأً . انحتُ عليّ ،

هامسة في اذني ، كي لا يسمعنا ابي فيخرسنا،قائلة لي :

" يا ولدي إلامَ تظل مع عشرة الاشرار والفاسدات . انهم وقود

جهنم،هذا شيءٌ مذكورٌ في القرآن " فتحتُ عيناً واحدة عليها ،

كانت الاخرى نائمة لشدة النعاس . اخبرتها دون تردد : " يا

اسفي يا امي على ذلك ، ان تذهب تلك الوجوه البديعة الرائعة

وتلقى في النار وتبقى وجوهكن ، انتن الكالحات ، البائسات ،

يا اسفي يا اماه " . عبثاً كان نصحتها وكلامها معي ، وحتى بعد

ان تزوج ابي عليها وصرنا اولاده من الدرجة الثانية ، كالمواطنين

في بعض الدول ، استطعت ان انتهز الفرص في تحقيق رغباتي

الجامحة ، متحيناً المناسبة للغياب من الدار ، مع شلة من رفاقي ،

ومعظمهم من ابناء الرفه والدعة والتراخي بالبصرة،مجتمعين في

بساتينها الظليلة الوارفة ، وما اكثرها آنذاك ، لا تسمعين فيها الا

اغاريد البلابل بين سعف النخيل ودوالي الاعناب . لا تشبه

اصوات صواريخ اليوم . على اية حال ، لم نحسن صيانتها ،



للاسف . هذا الذي يجري بعض من ذاك. اللعنة على كل من  
فكر في الحروب مخترعاً الآت الدمار . هكذا كنا بلا حسيب او  
رقيب ، مع نخبة ممن نحب من تلكنّ الغواني. اعود الى بيتنا ، فيما  
والدي مشغولٌ بزوجته الجديدة ، التي سرعان ما جاءت له بصبي  
ثم بآخر حتى فقد اهتمامه الشخصي بي الى درجة كبيرة ،  
فاسترحتُ منه ومن سؤاله : اين ذهبَ ومتى جاء؟ ولاول مرة  
بدأتُ انظر لوجه امي نظرة متفحصة . لم يكن من الوجوه  
الكالحة ، خلاف ماهدرت به اثناء نعاسي تلك الليلة . كان  
صبوحاً دون ضحك .هادئاً دون جمود . بدأتُ انظر الى الأذى  
الذي اصابها بعد زواج والدي . كان وجهها مرآة سجال ،  
تخفيه عنا بصعوبة بالغة . لا تعرف ما هو حقها او حق غيرها .  
انها بسيطة ، كما قلتُ لكِ ، لا تملك سوى الفطرة والعيش  
بالغريزة . راح ذلك الألق الصبوح العفوي الذي عرفتُها به  
بالدرجة الاولى ، حين أفاجئها متحدثة مع ابي بلغة الزوجة  
الواثقة. اختفتُ هيمنتها واقتدارها في الاحاطة بفن ادارة البيت ،  
وكان شاغلها الوحيد قبل ذلك. انصب اهتمامها على ان  
تشغل نفسها بشرب الشاي المرّ الاسود ، جالسة قرب منقلة

الفحم ، مدخنة السجائر صامته طيلة الوقت . صباحاً ، ظهراً ، مساءً وهي على هذه الحالة . تسمع من مكانها اصداء ضحك زوجة ابي الجديدة ونغنتها لطفلها الاول ، ثم الثاني ، مجيء ابي من خارج الدار ، انه يقضي واجباً ، بالتأكيد ، حين يمر علينا ، مرتباً على راس اختي الصغيرة ، وهو في احسن حال . يتخطانا ، منتعشاً ، الى غرفة المرأة الجديدة ، كما كان يسميها الجميع ، وبضمنهم امي نفسها . مصحوبة هذه التسمية ، عادة ، بوعد خفي لا تحمله امي محمل الجدّ وهو: " لكل جديد طربه " أي ان اللذة به ستنتهي قريباً . لكن شاءت امي ان لا تنتظر . انتهت قبلها . اصابها مرض الكآبة الغدار . كانت قد قاربت الخامسة والاربعين ، السن التي تحتاج فيها المرأة الى عناية من حولها وحبهم ، لتستعيد الثقة بنفسها ، هذا ما تقوله خالتك لطيفة ، انها تفهم في هذه الامور . على اية حال ، بدلا من ذلك ، كانت امي تسمع ، وهي في جلستها ، تلك " المرأة الجديدة " ، تقرأ على والدي قصصا من كتاب " الف ليلة وليلة " او " سيرة ابي زيد الهلالي " او " عنتره بن شداد " ، فيستأنس ابي ايما استئناس . كانت " الجديدة " تعرف القراءة والكتابة ، مثل الرجال تماما ،

وهذا مصدر طربٍ لابي ، الذي جاوز الستين ، كانت القراءة ،  
وحدها ، كافية لاسعاده وبعث الانشراح والبهجة في نفسه .  
كم الساعة الان عفاف ؟! لقد تأخرنا كثيرا ، على ما يبدو ،  
سهرنا طويلا .

نظرا في ساعتيهما ، معاً ، قالتُ الاخيرة :

\_\_ الثانية عشرة والنصف .

\_\_ وراءك عمل غدا . هيا بنا للنوم . آه يا امي ، لماذا توفيتِ  
بسرعة .

قام الخال من مكانه ببطء ، متأوها : توفيتُ المسكينة بعد  
ثلاث سنوات من زواجه . اعطيني بطانية اخرى ، عفاف . لم انمُ  
البارحة ، البرد شديد عندكم بلندن .

تمَّ تحضير فراشه بسرعة . تركته عفاف كي تفتح باب المطبخ  
المؤدي الى حديقة صغيرة كي تخرج كلبتها المدربة (لولوة) . وهذه  
ظلت صابرة رابضة بجواريهما طيلة الجلسة ، وسبق ان اطعمتها ،  
باديء ذي بدء . قضت الكلبة حاجتها ، في العراء ، ثم عادتُ  
الى الداخل .

بعد ان انتهتُ عفاف من استحمامها وتنظيف اسنانها قهيئاً

للنوم ، مرتً على خالها في طريقها الى غرفة نومها . له تنفس  
يعلو ويهبط بزفير وشهيق واضح ، يعلو ويهبط عميقا هادئا ، لا  
يختلف عن هسيس أي طفل آخر . نظرتُ في وجهه النائم ملياً ،  
كم كان يشبه وجوه كثير من الرجال الرسميين في العراق وما  
يجاور العراق . وجوه من وزارة الخارجية ، مديرية البعثات  
العامة ، البرق والبريد والسفر والجنسية . وجوه تشبه بعضها  
البعض ، كوجه خالها اليوم . نفس الخدين الاسمرين ، الانف ،  
الجبهة ، السحنة . كثيرة هي النزوات ، الشهوات ، الرغبات  
الخائفة ، لم تشبع ، بعدُ ، في هذه الوجوه . إنها تقاتل اليوم ،  
هذه الوجوه الواحدة ، من اجل شعارات احزاب ، من اجل  
دين ، من اجل قومية . لكم ظلمتُ وانظلمتُ ، هذه الوجوه ،  
قستُ وقُسي عليها ، شوهتُ وضحكتُ لمنصب أولكرسي  
حكم . غطتُ عفاف قدمي خالها جيداً ، طاوية اطراف البطانية  
حول جوانب الفراش . تركته ، كما لو انها تترك العراق ، كي  
تستريح ، ايضاً .

## خاتم وشذرة

للهولة الاولى ، ظهوروا عن كذب، وكأنهم على استعداد  
لالتقاط صورة فوتغرافية للذكرى . ما من وجه عابس او لا  
مكثرث ، ملتصقين ببعضهم بعضا، مبتسمين ، متهيئين،  
ناظرين اليها وهي عدسة كاميرا. عندما اقتربت منهم  
كثيرا ، كان الوضع مختلفا. ليسوا سوى زوجين ، زوجين ،  
اكتظوا في انحاء الغرفة ، كتفاً لصق كتف ، فالغرفة متوسطة  
السعة بحجم معظم غرف البيوت بلندن . مرقتُ في ذاكرتها  
باللهجة العراقية اغنية مصرية :

كل الاحبة اثنين اثنين وانت يا كلبى حبيبك وين  
اثناء مصافحتهم وتقيلهم . وقف بعض لتحتها ، بينما  
البعض يتزحزح في حركة وقوفه . لاحظتُ ، اثناء ذلك،  
تجاعيد في وجوه قسم منهم حان آوانها ، تهدل حدود ،  
بدانة معينة ، واعتدالا رشيقا ، عرفته منذ ان كان معظمهم  
طلابا بموسكو معاً ، قبل اكثر من عشرين عاما .

الشيء اللامفر منه ، ان الجميع تبدلوا بطريقة او باخرى من  
الناحية الشكلية . إصْلَعٌ مَنْ إصْلَعٌ من الرجال . خفتُ شعور  
بعضهم ، او صارت بيضاء كراية منسحبة مذعنة . التفتتُ الى  
صديقاتها البشوشات في وجهها، لم تسعفنَّ الابتسامات  
المرحة، وجدت السنون قد شقتُ ما استطاعت اليه سبيلا ،  
أُهملت غمازات في الخدين ، صارت حفراً ، بعد ان كانت  
نقر عصفور فرح ، ازرقّت بقع تحت عيون شهلة نتيجة  
الانتظار والقلق ، تبعثرتُ اسنان بسبب التصليحات المستمرة .  
لكنهنّ دافعن عن انفسهن ببسالة وصمت . استعملن اصباغاً،  
جهاز قسم منهن نفسه بمجوهرات حقيقية ومزيفة ، قلادات  
واقراط تلمع وتبرق وتخشخش بوحشية الجمال الذي يجرح .  
مع هذا فلتُ الامر من بين ايديهنّ ، لم تفد الجهود ولم تثمر  
سوى مزيد من الشقرة حفاظا على صفرة شعر ذهبي زائل ،  
او سواد في حلقة شعر، طمعاً في التمويه وخلط الاوراق .  
لم يسأل احدٌ منهم عما حلَّ بها و ( جلال ) بل تحاشوا التطرق  
للموضوع خشية ان يذوقوا طعم ما بقي من آثار في ذكريات

وقفتهم قبل ربع قرن ، محتفلين بزواجها منه في مكتب الزواج الرسمي في قاعة بلدية موسكو .

تصدت لها المضيضة مديحة ، صديقتها التي تمارس الكتابة بين حين وآخر ، والتي لا تنقطع عن اقامة دعوة كبيرة ، مرة في العام ، تدعو اليها اصدقاء مشتركين ، ولديها ماض حافل مع أغلبهم ، خصوصا ان زوجها المتوفي كان في السلك الدبلوماسي ، يوما ، عندما القتُ بهما عصا الترحال بموسكو ، بعد ثورة ١٩٥٨ في العراق ، حين انهارت الملكية كورق اللعب وكانت موالية ومرتبطة بالدول الغربية .

آنذاك ، كانت الموجة تدفع قسماً من هؤلاء الرجال والنساء ، شبابا ، الى التطلع الى موسكو ، معتبرينها ملاذا وحلا بديلا ، رابطين مصيرهم بمصيرها .

أجلستها مديحة على كرسي مناسب ، متوقعة ان يعاود الحضور الاستمرار في احاديثهم التي قطعوها بسبب هبة دخولها الغرفة . شدّها ، قبل ان تخرج ، منظر خاتم فيروزي الشذرة جذاب في اصبع الزائرة الأخيرة عفاف ، فأرادت ان تعلق عليه بمرح ، وهي الخبيرة بالاحاديث الدبلوماسية الطلية ،

ناوية ، بملاحظتها السريعة ، فتح جلسة محكمة مزاح ،  
متسائلة بتحقيق رهيب مضحك :

"من اين لك هذا؟! "طمأنتها الاخرى انه من العراق ، بل  
بالاخرى ، انه من ايران . واحد من نصف دزينة خواتم فوق  
منضدتها ، لكنه افضلها اليوم ، جلبه خالها مؤخرا لها. انه  
آخر ذكرى من امها المتوفاة . وقد اوصته به ، وهي على فراش  
الموت ، كي يوصله لها بلندن ، بعد ان شعرت بقرب اجلها .  
تبادل الحضور الخاتم ، الذي جيء به من بلد الى بلد ، بعد ان  
نزعتة عفاف من اصبعها، فكانت شذرتة اللازوردية تأخذ  
بجماع القلوب . فيها زرقة الكون كله عندما يكون مسالماً  
وصبوحاً وطيلاً . فيه شيء من الحرمة والجلال، فيه زرقة  
مآذن وقباب في مساجد لا للصلاة فحسب ، بل فيها عطور  
واصص ورد ايضا .

رأت عفاف اهتمامهم الزائد به ، فشعرت انها راغبة في

تفسير :

- سبق ان جلبه زوج اختي الى امي ، كهدية من ايران  
المعروفة بهذا النوع من الاحجار الكريمة الفيروزية .



بمجرد ذكر زوج الاخت ، ساد الوجوم فجأة.  
شعرتُ انها في ارض حرام ، كل الدروب فيها معرضة  
لانفجار قنابل والغام. كان جميع الحاضرين ، على ما يبدو،  
على علم بما حصل مؤخراً ، انتهوا تَوّاً ، كما في التقارير  
الصحفية ، من مطالعة ما حصل لزوج الاخت الايراني  
الاصل ، بعد ان أُخرج من العراق ، قسراً ، وكيف مات  
بمرض سرطان الدم بلندن مؤخراً . لدى عفاف شعور ان  
صديقتها مديحة ، صاحبة الدعوة ، قد شرحتُ الكارثة  
للحضور ، قبل مجيئها ، وهي تعرف القضية من الفها الى  
يائها.

بمثل خفة الدبلوماسيين في انتقالهم من بلد الى بلد ،  
انتقلتُ مديحة الى موضوع آخر جديد ، وبطلاقة تحسد  
عليها ، قلبتُ صفحة اخرى :

- تصوروا ، من يصدق ، انها اكثر من عشرين سنة  
مضت. صدق من قال : ينقضي اليوم ، اليومان ، السنة ،  
والسنتان ، بل السنون ، وجميع اعوام الانسان بين ليلة  
وضحاها . كأنني ارى وجوهكم البارحة بموسكو. زهير

ودلال ، سامي وعلي ونخالدة ، امينة ومحمود، ناجي

وعفاف وآخرين وآخرين ..

تجنبتُ ، بكامل وعيها ، ذكر اسم ( جلال ) ، انه محذوف  
مُح ، مثلما حاول رئيس وزراء العهد الملكي السابق ، مرة ،  
حذف مدينة موسكو من الوجود كلية ، وما عدا المذيع ،  
آنذاك ، الذي كان يقول في المذيع :

" هنا موسكو " لتصور ان باستطاعته الغاء وجودها.

كلمتان تُسمع فقط " هنا موسكو " ، والا ما كان يُسمح  
للشعب العراقي ، الممتحن بالاضطهاد ، سماع هذه الكلمة او  
التفوه بها. ما قبل عام ١٩٥٨ ، ظلت هذه المدينة بعيدة  
قريبة. موجودة في الخرائط ، ومجبرا على الغائها من الاذهان .

" هنا موسكو " يتهامس الناس فيما بينهم ، انها بلد يحكمه  
الفلاحون والعمال ، " هنا موسكو " بلد يعيش فيه الناس  
سواسية . كانت هذه المعلومات كافية لان تقنع معظمهم ،  
ان الامور تسير سيرا حسنا ، من دون حاجة الى شهود عيان  
او جهد كبير للفحص . " هنا موسكو " يُرفع الصوت ،  
احيانا ، او يخفض في المذيع ، تبعا للتحدي ، الخوف و

الشجاعة ، لئلا تسمع شرطة ما كان يُسمى بشرطة نوري  
السعيد ، الغاضب ابدا ، من ان يستمع احد ابناء الشعب  
العراقي الى اذاعة يجتهد ان يجعلها خرافة ، كذباً ، او وهماً  
مستحيلاً . لكن الاذاعة اذاعة ! طيب ، وماذا عن آذانكم  
!؟ انها آذانكم . لكن الاذاعة العلم لا يمكن دحرها ، رغم  
استخدام وسائل التشويش عليها . يظل صوتها عالياً ، حجر  
عثره، والتكنولوجيا الحديثة لاتسمح للحكومات كي تختلي ،  
وحدها ، بشعوبها كما يختلي السلطان بحريمه .

عام ١٩٥٩ وعفاف عمرها ١٧ عاما، اختض منزلها  
عندما علم انها مصممة على اكمال دراستها في الخارج ،  
وفي موسكو بالذات . البلد الذي أميط عنه اللثام فجأة بعد  
ثورة ١٩٥٨ ، هتكتُ الحجبُ وُفضتُ الاختامُ . يسمع  
الشعب العراقي ، لاول مرة في تاريخه ، ان هناك بينه وبين  
الدول الاشتراكية علاقات دبلوماسية . يرى بأم عينه ، في  
العاصمة بغداد وفي مدن العراق الاخرى ، افراداً وجماعات  
من لحم ودم منهم . تأتي علانية من دول المنظومة  
الاشتراكية ، حسب اصطلاح الحبّ المتبادل بينهما . الحب

الذي نما وترعرع في الضغوط والحرمان ، في الغموض  
والكتمان والاضطهاد واللاادري. بفرح غامر، ينظر البعض  
في وجوههم ملياً ، في الشوارع والمحلات العامة . أحقاً  
اصبحنا اصدقاء دون رقيب او عدول ، دون محاسبة من  
شرطة او جواسيس؟! ولعظم البهجة ، قليل من هؤلاء  
العراقيين المحبين المشتاقين ، كان منتبهاً لاسباب تجهم وجوه  
ابناء الدول الاشتراكية ، القلق المرسوم على جباههم ، الهَمّ  
والغمّ الجاثم في قلوبهم . تحفظهم تجاهه ، خوفهم منه ،  
تجنبه . كان هاجس الاخوة الانسانية ، المساواة ، العدالة ،  
السلام ، شعارات يتلقفها الشارع العراقي كالجائع او  
العطشان . لا وقت لديه للتأني والتدقيق . لا يرغب في  
تفسير الاحلام خوفاً من ان يصطدم بالواقع البائس. لا يريد  
ان يعرف ماذا همهم وغمهم ، ناسياً كل شيء ، عدا لماذا لا  
يصفقون معه في الشوارع ، راقصين ، مغنين ، ضاحكين  
لانتصار ثورة ١٩٨٥ ، لثورته ، مصافحين يده بالتهنئة ،  
يده الممتدة اليهم كما الصداقة الحقة .

اكتظت قاعات الدراسة بطلبة تريد الالتحاق ببعثات بلدان يحكمها عمال وفلاحون ، في بلاد البسطاء التي يتغنى بمبادئها الشعراء من ( ناظم حكمت ) الى ( بابلو نيرودا ).  
أمعقول ان يتخلص الانسان من اضطهاده لآخيه الانسان؟!  
من الطمع ، الجشع ، الغش ، الفساد ؟ ان يعيش المرء من اجل اسعاد نفسه وغيره، ان يضحى من اجل المصلحة العامة، يتجنب الربح الحرام. بعض العراقيين يردد : ان معنى الدول الاشتراكية هي الرحمة بمعناها الواسع الشامل . العافية للاخرين ، وهي لا تريد من الشعوب الاخرى ومنهم طبعاً، سوى ان يغنوا معها الاغنيات مشيدين بالسلام العالمي والاخوة الانسانية .

أندفعتْ عفاف باوراقها الى مديرية البعثات العامة ببغداد ، مختارة العاصمة موسكو، بنشوة امل ذي شهية منقطعة النظر . وصادف ان تقدم ( جلال ) الطالب الذي تعرفتْ عليه بعد قليل ، واصبح زوجها بموسكو فيما بعد .  
ذهب الجميع الى الدول الاشتراكية ، بعروضها المغرية ومواضيعها المتنوعة واجور الدراسة القليلة وقبولها السهل .

اعداد الطلبة تربو على الآلاف ، و"هيا بنا " تسمع فيما بينهم ، في كل مناطق العراق وعلى جميع الاصعدة . ترى مديحة ،الآن ، قسما منهم هنا ، جالسين معها او واقفين ، في غرفتها الضيقة السعة بلندن . قدمت لهم مرطبات ومعجنات،مرت عليهم بمكسرات الفندق والجوز . اطعمة حلوة ومالحة ، حارة وباردة . غيروا اماكنهم او عادوا اليها ، تربعوا على سجادة صاحبة الالوان ، واضح انها من صناعات العراق الريفية ، كما علقت على الجدران لوحات من مختلف البلدان التي سبق ان جالت بها مع زوجها الدبلوماسي المتوفي . صورة من البردي لمملكة الفراعنة من مصر ، آية قرانية بالطغرائي من اسطنبول ، لوحة لفلاحة صينية مزهورة بقبعة قش تحت شمس صيفية ، كما تبعثت على المناضد والرفوف تحف منمقة الصنع بايدي عمال مهرة في بلدان زارتها وا عجبتهها . هنا فيل من الساج المطعم بالعاج من الهند . دون كينخوت خشب من اسبانيا وغيرها وغيرها .. تحت تأثير هذه البلدان المختلفة والمساحات النائية والمناظر المتغيرة ، لانت طبيعة المرأة

نفسها . صارت اكثر تفهما لاختلافات البشر وتنوع حياتهم واراتهم . بدت أكثر تسامحا واوسع خيالا . تميل الى التحليل والتأمل والمقارنة والاسباب ، بدلا من اعتمادها على الاحكام النهائية والمواقف الحدية . تقبل الاختلافات برحابة صدر وروح نكته . لا تجد غضاضة من ان تعاشر مع من لا يتفق معها . ليست ، بالضرورة ، هي المصيبة . سيما انها رأت مجتمعات واديانا ، تقاليد واعرافا ، ملابس ووجوها لا حصر لها على الكرة الارضية . تنظر الى الحياة من اكثر من زاوية ونقطة . كما تغير اصدقائها ، ايضا ، اثناء رحلة العمر هذه ، ولو بدرجات متفاوتة ، وقد عثرت عليهم اثناء عزها في الوظيفة الدبلوماسية ، وعزهم في الاراء المثالية والنظريات الطموح . قبل ان تلجئهم التجربة الواقعية في الهبوط من قممهم بموسكو وغيرها من الدول المسماة اشتراكية، الى مجرد لاجئين سياسيين ببريطانيا واوربا، مشردين في قبرص ، سوريا ، الجزائر ، اليمن الجنوبية . ترسل قسما منهم ، تسمع شكواهم ، تتألم معهم ، يلتجئون اليها عندما يصلون الى لندن ، قلقين ، مشوشين ،

خائفين ، يثونها همهم ، فتعطيهم آذانا صاغية . هي على علم بظروفهم واحلامهم ، فقد سبق ان تعلمت منهم كيف يضحى المرء بزهرة شبابه في سجون نوري السعيد بسبب ارائه ، وكيف يكون المرء معرضا للاعدام لو عاد يوما للعراق ، بسبب جملة او عبارة نقد الآن . يناله الاذى دون ان يعرف ذنبه او يعرفه ذووه . هؤلاء الشباب ، عندها ، لا يكبرون ابدأ ولا ترى التجاعيد او الشيب عندهم . تراهم ابناء العالم الثالث كله وليسوا عراقيين فقط . ترى مأساتهم ومحتهم بعد استقلال شعوبهم ، تنظر اليهم وكلها حنان وشفقة .

استمر الجالسون معها في تلك الليلة بيبتها . تسقيهم وتطعمهم ، تريهم وتدلهم ، تستفهم منهم وترعاهم ، قبل ان يختلي كل واحد منهم بالآخر وتتشعب الاحاديث فيما بينهم باصوات شتى . سمعت (ناجي ) يتحدث مع سامية مندهشا :

\_ انتِ شايفة الباذنجان بسوق " ساوث هول " ، هناك باذنجان صغير جدا وآخر كبير الحجم . هناك قسم لونه



رمادي او اميل الى الزرقة ، و آخر داكن املس يلمع من  
كثرة السواد. منه ما يكون رفيعا طويلا ، ومنه المستدير  
كالكرة او الملتوي على نفسه . هناك اللوبياء ايضا ، منها  
لوبياء بيضاء واخرى قرمزية ، لوبياء صغيرة جدا ، جدا ،  
واخرى ذات حجم بقدر الفلّس . في سوق منطقة "ساوث  
هول " اشكال والوان .

كان ( ناجي ) اول المتمردين بموسكو، بعد ثلاث سنوات ،  
انتقلَ للدراسة ببريطانيا . الجلسة مستمرة حتى الساعة  
العاشرة من الليل . ثلاثة في الركن القصي ، يعتبرون  
انفسهم مسؤولين عن الاحاديث الثقافية والسياسية . كلهم  
اختصاصات عليا بمواضيع متقاربة. كبيرهم يعدد اهم النقاط  
في تحسين احوال العراق بعد ان سُئل عن رأيه ، انتبه الجميع  
متلهفاً للسمع ، قال:

\_ سأذكر عشر نقاط ، كلها مهمة ولا افضلية بينها . اولاً:  
حضارتنا حضارة نهر ، وسترون ان كل من عاش قريبا من  
الانهار صارتُ السلطةُ لديه دكتاتورية . ثانياً : الوظائف  
عندما تُشغل عندنا تكون للتقليد ، فقط ، وليست وظائف

للممارسة الحقيقية ، فالطبيب ليس طبيباً ، همه علمه وطبه ،  
وانما من اجل الوجاهة والنفخة والمسالة المادية . المهندس لا  
يكون مهندساً ، ممارساً مهنته ، بحرص وولع ، بل من اجل  
النقود والمنفعة الشخصية ، وكذلك المعلم ، غير عابئ  
بطلابه وبمادة التدريس ، الى غير ذلك .. ثالثاً : لم يكتب  
الدين عندنا وانما الثقافة الدينية شفوية ، ولذا لم يناقش الدين  
كما نوقش في الديانات الاخرى ..

استمر المثقف يعدد النقاط ، حسب رأيه ، والتي يعزو اليها  
تخلف العراق ، حتى وصل الى رقم سبعة ، وهو ناوٍ على  
الاستمرار حتى النقطة العاشرة ، متمهلاً ، متأنياً ،  
مطمئناً، حين تفشى لغطٌ خافت، في الغرفة. احتجاج دفين في  
صدور الحاضرين . همسٌ ولغطٌ هنا وهناك . علا صوت  
جريء ، اثناء ذلك . صوت متلهف على الوصول الى حلّ  
عاجل حاسم يريد ان يصل الى فكرته ويخصم القضية :  
\_ طيب يا اخي ، ما العمل ؟! نحن الآن بصدد تغيير سريع .  
هل تستطيع ان ترشدنا قبل ان "نطمّ النهر"؟!  
بمجرد ان تلفظ بكلمتي " نطمّ النهر " مصراً عليها

بصوته ، وباستهزاء واضح ، حتى انتعش الجميع ، ضحكوا  
صراحة ، وبصوت عالٍ . عمّ جذلٌ اخواني ومرحٌ خفيف .  
اوقفَ المثقف العراقي عند حده . دهش ذاهلاً . لم يجد جواباً  
للسؤال السابق . احتارَ بامرهِ . ابتسم ، لعجزه ، متسامحاً  
لنفاد وقلة صبر اصحابه . رفع احد الحاضرين اصبعه ، كما  
يفعلون في المدارس الابتدائية ، يريد الكلام .  
من الصعوبة بمكان ايصال صوته ما لم يحصل شيء من  
الهدوء والنظام في الجلسة :

\_ طيب ، يا اخي ، انا اعطيك حلاً . ما نريده في العراق  
هو الحرية ثم الحرية ثم الحرية .  
ما ان سمع الحضور الكلمات الاخيرة الثلاث حتى عاطوا  
وصاحوا بفرح واستحسان . ضحكوا واستبشروا ، تجمعوا  
وانتشروا . ايدوه باشارات واصوات ، بضجيج يلفت  
الانظار ، ثم شرعت كتلة واحدة من بينهم تكبر وتتسع ،  
تهلُّ وتنادي ، تتمايل بغبطة ونشوة وحماس ، من بينها كفُّ  
ذوخاتم فيروزي الشذرة يرقص جدلانا ، يميناً وشمالاً ، شمالاً

ويماناً منشدين ، جميعاً ، وبصوت واحد رخيماً متجانساً  
النعمة ، مكررين كلمة : الحرية ، الحرية ، الحرية

\*\*\*\*\*